المرأة فى منهج الإمام الغزالى

تأليف: سهيلة الحسينى
تقديم: دكتور محمد عمارة

دار الرشاد

١٥

المرأة فى منهج الإمام الغزالى

الناشر	**دار الرشاد**
العنوان	١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفون	٣٩٣٤٦٠٥
رقم الايداع	٩٨/٥٧٨٤
الترقيم الدولى	977-5324-58-0
الطبع	**عربية للطباعة والنشر**
العنوان	٧, ١٠ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون	٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣
الجمع	**ارتك**
العنوان	٤ ش بنى كعب متفرع من ش السودان كيت كات
تليفون	٣١٤٣٦٣٢

جميع حقوق الطبع والنشرمحفوظة

الطبعة الأولى	١٤١٩هـ ١٩٩٨ م
رسوم	**محمد فايد**
خطوط	**لمعى فهيم**

المرأة في منهج الإمام الغزالي

تأليف : سهيلة الحسيني
تقديم : دكتور محمد عمارة

دار الرشاد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عن الكاتبة والكتاب

صاحبة الكتاب ـ السيدة الفاضلة سهيلة الحسينى ـ واحدة من نجباء مدرسة شيخنا محمد الغزالى، عليه رحمة الله.

وإذا كانت مدرسة الشيخ الغزالى الفكرية قد استقطبت الملايين من عشاق الوسطية الإسلامية، والاستنارة الفكرية، والغيرة على حرمات الإسلام، والسعى الجاد لإنهاض الأمة.. فإن لصاحبة هذا الكتاب مكانة متميزة فى هذه المدرسة الفكرية الكبرى..

فهى قد تتبعت الآثار الفكرية لشيخنا الجليل.. ووعت ما ضمته من قضايا واجتهادات ونظرات.. ثم هى قد تتلمذت على الشيخ تلمذة مباشرة عندما أقامت معه ومع أسرته الصلات الروحية التى استمرت السنوات الطوال، حتى كانت أثيرة لديه، يخصها بالرعاية والاهتمام..

وفوق كل ذلك فالسيدة سهيلة الحسينى كاتبة مُجيدة، امتلكت قدرات متميزة فى الفكر العربى والإسلامى، صاغتها صياغة أدبية

مشرقة، تشى بتمكن من أساليب التعبير، جميلة ومتميزة معاً.. والتميز فى أساليب التعبير خصيصة للممتازين والمتميزين من الكُتّاب!..

والغريب ـ مع ذلك ـ هو تهيُّبها من النشر لهذه الكتابات.. ولقد كانت تعرضها على شيخنا الغزالى ـ رحمه الله ـ فكان يُثنى عليها، ويشجعها على مواصلة الإبداع.. وفى السنوات الأخيرة من حياته بيننا نصحها بأن تعرض علىّ مخطوطات كُتبها؛ فسعدتُ بالاطلاع عليها، كما سعد بها شيخنا الجليل، وظللت أتمنى أن ترى هذه الكتابات النور؛ ليعم الانتفاع بها، فحرام أن تظل هذه الإبداعات حبيسة المخطوطات، بينما تمتلئ المكتبات بما يجب أن تتنزه عنه الأوراق!..

وإذا كان هذا الكتاب ـ [**المرأة فى منهج الإمام الغزالى**] ـ هو أول إبداعات السيدة سهيلة الحسينى بعد وفاة شيخنا الجليل.. فإنه العمل الفكرى الأسبق عن فكر شيخنا بعد انتقاله إلى رحاب مولاه.. فلصاحبته فضل الريادة لميدان الدراسات التى تنتظرها جماهير أمتنا عن آثار واجتهادات ونظرات إمامنا الجليل..

ويزيد من أهمية وقيمة هذه المبادرة الرائدة خطر القضية التى يعرض لها هذا الكتاب، والتى احتلت مساحة واسعة من فكر الغزالى وآثاره واجتهاداته، منذ فجر كتاباته وحتى عمله الفكرى الأخير..

إن هذا الكتاب الذى نقدمه إلى القراء والباحثين قد جاء ثمرة للوعى الناضج بكل جوانب المشروع الفكرى للشيخ الغزالى، بل والمعايشة القريبة لحياة شيخنا الجليل ـ عليه رحمة الله ـ ولو أن باحثاً أمضى السنوات لإعداد رسالة جامعية عن المرأة فى فكر الشيخ الغزالى لما بلغ هذا المستوى العميق والدقيق والمحيط الذى بلغته السيدة سهيلة فى هذا الكتاب..

لقد قدمت خدمة فكرية عظيمة للقراء والباحثين، عندما فتحت باب الدراسات العلمية الجادة فى فكر الشيخ الغزالى ؛ ليتواصل الانتفاع باجتهاداته الفكرية وبجهاده العلمى، الذى نحن فى أمسٍّ الحاجة إليه..

وإذا كنت على ثقة من أن قراء هذا الكتاب سيسعدون كل السعادة بالجهد العلمى المتميز المبذول فيه.. فإننى على ثقة كذلك بأنهم سيشتركون معى فى الرغبة أن ترى كل إبداعات هذه الكاتبة الفاضلة النور فى وقت قريب..

والله من وراء القصد.. منه نستمد العون والتوفيق.

دكتور محمد عمارة

الإهداء..

إلى رجل رأى وقوف المرأة جانبه تأسياً بالحديث الشريف «النساء شقائق الرجال»..

وآخر.. أقصاها ـ ما وسعه ـ عن أشعة الشمس وأجواء الحرية إلى حد الظلمة والصقيع..

وثالث.. تركها تقترب من هذه الأشعة والأجواء إلى حد الاحتراق!..

سهيلة الحسينى

المقدمة

استمر الأزهر الشريف منذ افتتاحه فى ضخ كوكبة لامعة تخدم فى ميادين الفكر والدعوة والإصلاح والتجديد. وفى عقل وجوانح كل من هؤلاء رسالة منّ الله سبحانه بها عليه ، فأوقف لها حياته وجهده منافحاً عنها، غايته رضا الله فقط، ببذل أقصى ما وسعه لإسعاد أمته.

وكان شيخنا الإمام المفكر محمد الغزالى ـ رحمه الله ـ قد منّ المولى عليه بأكثر من رسالة وقضية، حملها بتميز دفاعاً عن الدين الإسلامى وأهله، وطالما تعرض هذا المفكر والداعية الجرىء لمعارك، ومقاومة من خصومه أتعبته وأرهقته.. لكنها أبداً لم تزده إلا إيماناً وصموداً.. فكان كالجندى الفدائى يأبى إلقاء سلاحه إلاّ وقد فارق الحياة!..

لقد ترجم الشيخ الغزالى ذلك سلوكاً عملياً حتى آخر لحظة من حياته ـ رحمه الله.

ولقد وافته المنيَّة وهو يشارك فى الدفاع عن قضايا أمته ضد المتغربين الذين يعملون على تذويب الثقافة الإسلامية، فى ندوة تناولت «الإسلام والغرب» ضمن مهرجان «الجنادرية» الذى أقيم فى الرياض.

إلاّ أن أبرز قضايا هذا الداعية الفذ، تلك التى رصدها فى الدفاع عن حقوق المرأة.. ورغم أن قضية المرأة المسلمة لم تخل ساحتها من رجال أغيار مصلحين تصدوا لما لحقها من ظلم امتدت آفاقه على كافة أنشطتها الحياتية في أعصر كئيبة، ابتعد المجتمع عن تعاليمه الإسلامية الوضيئة، ومضى لإحياء عادات ومواريث جاهلية تصادر حقوقها الفكرية والاجتماعية.

على أنه برزت أسماء لامعة وأصوات تفاوتت خفوتاً وجهراً ضمن هذا المحور خلال الحقبة الأخيرة بدءاً من رفاعة الطهطاوى حتى «قاسم أمين» وكتابه الشهير (تحرير المرأة) الذى شارك فى كتابة بعض فصوله الأستاذ الإمام «محمد عبده».

وجاءت صيحة الشيخ الداعية «الغزالى» منذ أوائل كتبه فى الدفاع عن حقوقها، تُحدِث رعباً فى القلوب المتطرفة رغم منهجه المعتدل، فحورب وحارب على جبهتين متناقضتين جنحت إحداهما نحو الإفراط.. والأخرى نحو التفريط!..

كان شيخنا الغزالى رافضاً لقضية المرأة أن تبدو «كبندول الساعة إلى أقصى اليمين تارة وإلى أقصى اليسار تارة أخرى، ولا تستقر مطلقاً عند الحد الوسط الذى يطلبه الإسلام»[1]؛ ليحتويها بإيجاز بليغ واضح المعالم:

«إننا لا نريد أن ننقل المرأة من عهد الحريم إلى عهد الحرام..»[2].

---

(١) محمد الغزالى: (من هنا نعلم) ص١٤٢، نهضة مصر، القاهرة.

(٢) الغزالى: (معركة المصحف) ص ٢٦٥، مكتبة رحاب، الجزائر.

فعنده أن مكانتها الحقة كما أراد لها وحي السماء على عهد الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم.

لقد أطلق على هذا الداعية المجتهد والمفكر الإسلامي الكبير العديد من الألقاب والنعوت التي تشير إلى علو مكانته وغزارة علمه، بيد أن أقربها إلى نفسي لقب «الموسوعة الفقهية» فعن طريقها غاص في بحار الشريعة مستخرجاً أدلة الدفاع لتدحض تهماً باطلة وأحاديث مكذوبة عن المرأة، استطاعت حجبها دهرًا عن مصادر العلم النقية وقنوات التعامل مع مجتمعها، من خلال دراسته العميقة لنصوص كتاب الله وسنة نبيه وفقه الصحابة والتابعين والأئمة الثقات، سالكاً في منهجه : «لنأخذ ديننا من مصادره الصحيحة بدل أن نأخذه من مؤلفين قصار الباع والنظر، يروّجون أحاديث واهية أو موضوعة، ويتعصبون لأحكام من آراء البشر لا من نصوص السماء»[1].

ومن خلال فقهه نفي ما عرا هذه الأحاديث من لبس وتحريف، وإن جرّت عليه المتاعب كما حدث لدى نشره كتابه الموسوم «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»!..

إن رحلة دفاع الغزالي ـ رحمه الله ـ عن المرأة بدأت مع أوائل مؤلفاته في بداية الخمسينات (من هنا نعلم) وحتى أواخرها.. (التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم) في التسعينات، وما بين المؤلفين عقود طويلة دافع فيها عن المرأة فكرًا ولسانًا وقلماً كما لم يدافع عنها أي مصلح أو داعية.

(١) أطلقه أحد الأساتذة الأجلاء خلال إحدى جلسات مؤتمر لجامعة الأزهر في (أغسطس / آب ١٩٩٢م) بالقاهرة.

لم يكن الأستاذ الإمام من خلال مؤلفاته الغزيرة عن المرأة بمنأى عن طبيعة همومها ومشاكلها وطموحاتها وإحلالها من مجتمعها ضمن الصورة الجديدة بها..

لقد ترجمه واقعاً عملياً..!

أذكر فى إحدى زياراتى إلى القاهرة (١٩٩٢م) وكانت قصيرة، أن ذهبت وجلست فى آخر القاعة فى مؤتمر كان يشارك فيه.. ورأيت أن أبعث لفضيلته ورقة أشعره فيها بوجودى، وبأنى لم أوفق فى السلام عليه من خلال هاتف مسكنه؛ فما كان منه ـ رحمه الله ـ إلا أن نهض من مكانه فى المقدمة مجتازاً القاعة بين دهشة بعض الحاضرين ليسلم على ويدعونى لزيارته والعائلة فى ذات اليوم؛ رغم جلسات المؤتمر المرهقة له لامتداد ساعاتها، ورغم سفره فى صبيحة اليوم التالى فى رحلة علاجية إلى ألمانيا.

كان يكفى فضيلته إرسال الرد فى ذات الورقة.. لكنه آثر أن يقدم للحشد الحافل درسًا عملياً فى التواضع والاحترام لكل امرأة.. لا لشخصى وحسب!!..

لم يكن أستاذنا الجليل من خلال القنوات الإعلامية ليخاطب المرأة مشخصاً أدواءها واصفاً أدويتها من موقع إقليمى أو عربى.. إنما خاطبها كمسلمة حيث وجدت فوق هذه المعمورة.

إلى جانب مرتكزات منهجه المستند إلى مصادر الشريعة الإسلامية، فقد ضمنها اجتهاداته الخاصة بحكم الإيقاع السريع لمستجدات العصر.

وأنا إذ أقدم هذه الصفحات المتواضعة حول فكره ومنهجه لقضايا المرأة، لا أدّعِي أني غطيت جوانب الموضوع تلك التى تناولها أستاذنا الجليل بشمولية وكثافة عميقتين!.. ذاك ما يحتاج إلى مجلدات عديدة وجهداً كبيراً من البحث والتأمل ما أفقَرنِي إليهما؟!.. على أنى تناولت بعض قضاياها المحورية التى غلب على معظمها سمة التعامل اليومى.

ومن خلال مؤلفاته ذات الأسلوب البليغ واللغة الرفافة والتأثير العميق.. ومع الاختصار ـ لا كلالاً أو ملالاً ـ إذ تناوله للموضوع فى أكثر من مؤلف له بعدُه الفكرى، كما أن له مذاقه وأسلوبه الجدير بالعرض كاملاً، بيد أنى آثرت ما يغنى عن التشابه فى جوهر الموضوع.

وأمام هذه الشخصية المتميزة والتى تعد من أبرز علماء عصرها.. وأنا أقدم جوانب لفكرها حول المرأة، أسعى بكثير من التهيب والخجل إذ لم أوف البحث حقه.. لكن عذرى أنها صاحبة روح شفافة وقلب كبير لا يملك إلا أن يعفو.. ويسامح!!..

رحم الله شيخنا الإمام الجليل محمد الغزالى وأسكنه فسيح جناته، فما كان أبرّه بالأم، وبالأخت، وبالزوجة، وبالابنة.. بالمرأة المسلمة حيث كانت..

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[1]

سهيلة الحسينى

---

(١) سورة البقرة، من الآية : ١٢٧.

الفصـــل الأول :

المــــرأة.. والمسجـد

(كل امرأة تتبع ديناً من الأديان يتاح لها أن تذهب إلى معبدها، أما المسلمة وحدها فمحظور عليها أن تدخل المسجد ؛ لأن التقاليد فرضت عليها ألاّ تشارك فى جماعة.. وعشرات الألوف بل مئات الألوف من المساجد لا يلمح فيها شبح امرأة ، فى القرى والمدن)

الشيخ محمد الغزالى

إمام ومسجد..

منذ الطفولة عرفت خطاه طريق المسجد تلميذاً وإماماً، فلا عجب إذا وجد فيه بيته الثانى الذى ينبغى رعايته بالتعهد وهو يزوره خمس مرات فى اليوم على الأقل.

وحين أنهى دراسته كانت مآذنه أول من بارك تخرجه فاتحة له ذراعيها تحتضنه.. ورحبت به القاعات والصحون خطيباً مفوّهاً وواعظاً يلمس شغاف القلوب.. وصاحب حلقات دراسية امتدت ما بين أول مسجد عيّن فيه إماماً حتى آخرها (أول مسجد أقيم فى مصر) إلى جانب الأزهر الشريف حيث كانت له حلقة دراسية يقصدها طلاب العلم وصفوة المثقفين، وفى بلاغة واقتدار وصل جمهوره بتعاليم الحق سبحانه.

ما بين أول مسجد وآخرها.. سواء فى مصر أو البلاد التى زارها، لا غرو أن ترتبط حياته بحبائل الألفة والمحبة لأجوائها والغيرة على حرماتها، والتألم لما يتعرض بعضها للإهمال أو الإزالة دون بديل، أو افتقار بعض الضواحى الجديدة لها.

وكم عذبه ما طرأ على الأزهر من إهمال ملحوظ فى أعقاب ثورة يولية، كما آلمه تنامى عدد الكنائس فى مصر قياساً إلى المساجد، ولمن يحب الاطلاع على تفاصيل ذلك مع الإحصائيات فسيجدها فى كتابه «كفاح دين» باب دور العبادة. إنه ارتباط ـ ولا غرابة فى هذا ـ فشأن المصلحين رسالة يؤدونها. ولكون المسجد بيت الله فقد أخذ

جانباً كبيراً من اهتماماته الروحية والعملية.. جرى حديث حول آخر مسجد عمل فيه خطيباً «عمرو بن العاص» أكد فيه الأستاذ عبد الله إبراهيم المصرى، سكرتير لجنة الزكاة بالمسجد ورئيس مجلة الفسطاط، فى سياق قوله:

«فى عصر الثورة كان المسجد فى حالة يرثى لها، إلى أن عين الشيخ الغزالى إماماً له عام (١٩٧٢ ـ ١٩٧٣م) ليبذل جهوداً كبيرة لترميمه ونظافته، ولكن بعد أن ترك الغزالى المسجد، فالترميم يسير ببطء شديد جداً..»[1].

وما بين أول مسجد ارتبط به قلبياً وروحياً قبل ارتباطه وظيفياً.. حتى آخر مسجد فى مصر أو الدول التى زارها كان الجمهور الذى يلتقى به ويتربى على منهجه (مسجداً كان أم جامعة) خلال عمله أستاذاً أو زائراً، تشكل المرأة نسبة طيبة هناك، فطبيعة عمله فرضت تعامله اليومى معها، فارتبط بمشاكلها ورصد معاناتها وشكواها وتطلعاتها سواء فى الجامعة أو البيت أو العمل أو المجتمع الذى تتعايش معه.

***

(١) جريدة الأنباء، ملحق الجمعة، العدد (٦٤٨٢) فى ٢٧ آذار (مارس) ١٩٩٤م.

رسالة المسجد :

قبل وفاته - رحمه الله - بأيام تحدث مع رفيق فكره وزميل كفاحه، المفكر الإسلامى الدكتور «محمد عمارة»(١).

(١) إشارة المؤلفة إلى ما أعتبره وصية الشيخ الغزالى بالمساجد.. ففى يوم سفره إلى «الرياض» - حيث توفى - كان مدعواً إلى ندوة نظَّمتها وزارة الأوقاف المصرية - بمركز صالح كامل.. بجامعة الأزهر - عن الدعوة والدعاة - ١٥ شوال سنة ١٤١٦هـ / ■ مارس ١٩٩٦م - ولقد كتب رأيه، الذى قرئ فى الندوة، التى اعتبرته بمثابة التوصيات لمداولاتها.. وفيه - وهو آخر ما كتب - دعا إلى أن تكون المساجد مدارس للدعوة إلى الله.. فقال: «المساجد - بحمد الله - معمورة، ولكن الشكوى لا تنقطع من تقصير الأئمة فى خدمة الدعوة وإحياء الثقافة، وتقديم موضوعات حية تدعم الإيمان وتنير القلب واللب، وتواجه القضايا المتجددة وتحل المشكلات الوافدة.

وقد كنا من نصف قرن نواجه هذا الوضع ببعض الحلول السريعة:

أولاً: رفع المستوى العلمى للإمام بما يأتى:

أ - إنشاء إدارة للتدريب، تقوم بتقديم الدراسات الإسلامية والإنسانية للأئمة، مستعينة بكبار المفكرين والدعاة.

ب - عمل مسابقات دورية للأئمة فى جملة من الكتب النافعة، يمنحون عليها مكافآت مادية وأدبية مجزية، وتقصر البعوث على من يتفوقون فيها.

جـ - إمداد مكتبات المساجد بالكتب التى تربط الإمام بالحقائق المعاصرة والقضايا المهمة.

ثانياً: تحويل المسجد إلى مدرسة تلقى فيها حصص رتيبة فى العلوم الآتية:

السبت: تفسير. الأحد: السنة. الاثنين: الفقه. الثلاثاء: السيرة والتاريخ الإسلامى. الأربعاء: العقائد. الخميس: الأخلاق. وذلك بين المغرب والعشاء يومياً، على أن تكون أصول هذه الدروس مثبتة فى دفاتر تحضير يطلع عليها التفتيش ويدون ملاحظاته. ويفرد يوم الجمعة بالخطبة، على أن يكتب نصها فى دفتر خاص، ويعتبر تعطيل الدرس أو الخطبة إخلالاً خطيراً بوظيفة الإمام.

ثالثاً: تختار إدارة الأوقاف بعض المساجد لتقوية الطلاب المسلمين فى العلوم التى =

ارتباط المرأة بالمسجد:

كان نصيب المرأة ثقافياً من هذه الدار الطاهرة مساوياً للرجل، فهى تحضر الصلوات الخمس وخطبة الجمعة والدروس التى أفردها الرسول الكريم ﷺ لهن فى أوقات معلومة.

ومن خلال هذه الغدوات هل منعهن أحد؟..

لقد تتبع الشيخ الغزالى كل أثر صحيح تبدو فيه مكانة المرأة عزيزة فى ارتباطها بالمسجد، والتصدى لمن يمنعها غشيانه بدءاً من

= يأخذون فيها دروساً خاصة، ويشارك الإمام فى تقديم الإرشاد لأداء هذا الواجب لقاء مكافآت مجزية.

رابعاً: لا بأس من إقامة دروس خاصة بالسيدات فى أوقات الصباح، يندب لها وعاظ الأزهر ومن يستطيع المساهمة فى أداء هذا الواجب.

إن المساجد الآن جهاز قاصر فى خدمة الدعوة الإسلامية، وهى مهرب للكسالى الذين يفرون من أداء الواجب، مع أن الأديان الأخرى تضاعف نشاطها فى خدمة مبادئها والتقدم على غيرها. والواجب أن تزدهر الساحة الإسلامية فى المساجد، وأن تجتذب إليها الشباب المتطلع، وأن تكون المساجد الكبرى ملتقى لمن أراد المزيد من المعرفة، وأن تقام بها بين الحين والحين مواسم علمية دسمة يشارك فيها قادة الرأى ورجال الفكر المرموقون. ولا بأس من إحياء فترات التدريب المتصلة فى مدينة البعوث، وأن تمتد كما كانت أسبوعاً أو أسبوعين، وأن يشارك فى جلساتها العلمية كبار الشيوخ والأخصائيون فى علوم التربية والتاريخ والأديان والاقتصاد وحاضر العالم الإسلامى، وبذلك تعود للمسجد مكانته الأولى فى قيادة المجتمع روحياً وعلمياً».

محمد الغزالى

ذلك هو نص وصيته بالمساجد ـ عليه رحمة الله ـ فلقد كان قلبه معلقاً بالمساجد.. بها بدأ العمل.. ولها كتب آخر ما سطرت يداه..

دكتور

محمد عمارة

صلاة الفجر حتى غبش الليل من خلال الدعوة المفتوحة لها من النبى الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **«لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»**. رواه أبو داود.

المسجد.. وأدب المرأة

استطاع الإسلام أن يلبس المرأة حلل الصون والعفاف والحشمة مع مظهر لم تكن لتعرفه زمن الجاهلية.. لقد صنع الإسلام منها شخصية ملتزمة متفردة فى السمو والمكانة، فاختلاط المرأة فى المسجد أو خلافه غير اختلاط المرأة فى قصور الأكاسرة أو فى بلاط القياصرة..

لقد خرجت وفق أسيجة العفة التى أهداها النبى الكريم للمرأة من خلال تعهده لها بالنصح والحديث التربوى الرفيع مظهراً وسلوكاً زخرت بها السنة النبوية، وسجلها الشيخ الغزالى فى العديد من مؤلفاته.

وقد التزمت الصحابيات بهذه التعاليم جملة وتفصيلاً.

لقد قدم الغزالى أحاديث فى أدب تزكية المرأة وهى تأخذ طريقها نحو المسجد بعد أن شرحها شرحاً يزيل ما عراها من لبس أو تشويه أو خلط يزرى بقيمتها نفسياً وأدبياً من بعض المحدثين والشراح..! ومع كثرة الأحاديث التى تناولها بالنقد كاشفاً عن المعنى الأسنى الذى أراده الشارع لا الشارح نتناول أحدها:

روى أبو داود عن أبى هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه

وسلم ـ قال: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، ولا يخرجن إلاّ وهن تفلات**» (غير متطيبات ولا متعطرات).

قال ابن حزم : «وهذا نفس قولنا: فإذا خرجن متزينات متطيبات فهن عاصيات لله تعالى، خارجات بخلاف ما أُمِرْنَ، فلا يحل إرسالهن حينئذ أصلاً!!»[1].

ولكن كيف حُوِّر معنى هذا الحديث؟ يقول الشيخ الغزالى:

«إن مصاب الإسلام فى المتحدثين عنه، لا فى الأحاديث نفسها..

نبينا يوصى بأن تذهب النساء إلى المساجد «تفلات» أى: غير متعطرات ولا متبرجات، ولكن «القسطلانى» فى شرحه للبخارى يرى أن تذهب النساء إلى المساجد بثياب الطبخ وفيها روائح البقول والأطعمة!!. وغيره يرى ألا تذهب أبداً، فأى الفريقين شرٌّ من صاحبه على الإسلام؟»[2].

إنه لمن الطبيعى أن تحتكَّ الأخت المسلمة بأختها فى صفوف الصلاة.. وإذا علمنا أن النبى الكريم ينهى عن أكل الثوم عند التوجه نحـو المسجد خوفـاً مـن تأذى جمهور المصلين، فهل مايؤذى الرجل لا يؤذى المرأة؟!.

فى أدب ذهابها إلى المسجد يمضى شيخنا مع السنة النبوية:

---

(١) الإسلام والطاقات المعطلة: ص ١٤٤، ١٤٥، ط ثالثة، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ٦، ط دار الشروق، القاهرة.

«وحديث سهل بن سعد : لقد رأيت الرجال عاقدى أزرهم على أعناقهم ـ من ضيق الأُزُر ـ خلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال قائل :

يا معشر النساء لا ترفعن رءوسكن حتى يرفع الرجال» .

وقوله ـ عليه السلام ـ : «**خير صفوف الرجال المقدم، وشرُّها المؤخر، وشر صفوف النساء المقدم وخيرها المؤخر**»(١).

وهذا الحديث يحارب تفكير بعض الرجال فى التأخر للاقتراب من النساء، وتفكير بعض النساء فى التقدم للاقتراب من الرجال ؛ فإن جو العبادة لا يسوغ أن تتنفس فيه هذه الشهوات الصغيرة. ثم قال :

«**يا معشر النساء : إذا سجد الرجل فاغضضن أبصاركن. لا ترين عورات الرجال من ضيق الأزر**»(٢).

وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشيراً إلى أحد أبواب المسجد : «**لو تركنا هذا الباب للنساء**» فما دخل ابن عمر من ذلك الباب حتى مات ! !(٣).

«ولا ينبغى للمرأة إذا خرجت أن تتبجح فى الطريق أو تحدث مظاهرة حولها ! !

---

(١) أخرجه مسلم – الصلاة (تسوية الصفوف) برقم ١٣٢ مع اختلاف يسير فى اللفظ، عن أبى هريرة، والترمذى برقم ٢٢٤، وابن ماجه برقم ١٠٠٠ وغيرهم.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد ٣/٢، ٢٩٣، ٣٨٧ وابن حبان ٣٨٥، ٤١٧ وابن خزيمة برقم ١٦٩٣

(٣) الإسلام والطاقات المعطلة ؛ ص ١٤٤، ١٤٥ ط ثالثة، دار الكتب الحديثة، القاهرة .

عن أبى أسيد قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو خارج من المسجد وقد اختلط الرجال مع النساء فى الطريق : **«استأخرن فليس لكنّ أن تحققن الطريق، عليكن بحافات الطريق»**[١] فكانت المرأة تلتصق بالجدار ـ مخافة أن تزاحم أحداً ـ حتى إن ثوبها ليعلق بالجدار من لصوقها به![٢]..

بمثل هذا الأدب النبوى التزمت الصحابيات سلوكاً، أما ملابسهن فكنَّ كما وصفت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ:

«إن كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصلى الصبح، فينصرف النساء متلفعات بمروطهن ما يُعرَفن من الغَلَس»[٣].

مسألة فقهية:

فى أفضلية مكان صلاة المرأة..!

«والآثار عن حضور النساء صلاة الجماعة والجمعة مع رسول الله ﷺ متوافرة، فى غاية الصحة، لا ينكر ذلك إلاّ جاهل»[٤].

والسؤال الذى يطرح نفسه : إذا كانت المسلمة ترتاد المسجد على عهد رسول الله ﷺ فلِمَ أوصدت أبوابه فى وجهها من خلال أحاديث برزت، وهى على ما هى عليه من التمسك بالأدب والوقار

---

(١) أخرجه أبو داود برقم ٥٢٧٢ عن أبى أسيد الأنصارى.

(٢) من هنا نعلم: ص ١٥٩، ط نهضة مصر، القاهرة.

(٣) أخرجه أبو داود برقم ٤٢٣ عن عائشة رضى الله عنها. والغَلَس هو ظُلْمة آخر الليل.

(٤) الإسلام والطاقات المعطلة: ص ١٤٤.

ثما كانت على عهد الرسول الكريم؟ . . ومتى تحقق ذلك . . وكيف ثم ولمصلحة من؟ . .

حول جميع هذه التساؤلات يصل الرد الموضوعى من خلال فقه لإمام المجدد الغزالى :

«ولقد رأيت فى قضية المرأة أحاديث موضوعة صححها الغرض لمدخول، وأحاديث صحيحة حرفت عن موضوعها» .

ودهشت وأنا أقرأ لبعض الفقهاء : إن صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى المسجد الحرام أو النبوى؟ وقلت : لو كان لأمر كذلك فلِمَ أشرفَ الرسول ﷺ على تنظيم صفوفهن فى مسجده؟ .

ولم جعل لهن باباً خاصاً بهن؟ ولِمَ ذهب إليهن فعلَّمهن وحدثهن عن الصدقة؟ ولِمَ حذر البعض من الحرص على القرب من صفوفهن؟ . .

الواقع أن المرأة أولى بها أن تصلى فى البيت إذا كانت مسئولية التغذية أو التربية تفرض عليها ذلك، أما إذا تخففت من هذه الواجبات لسبب أو لآخر فلا يمنعها بشر من الذهاب إلى المسجد ليلاً أو نهاراً؛ لأن صلاة الجماعة ليست مؤكدة فى حقها كالرجال، ولا يفيد ذلك فرض حصار قاتل على حياتها العملية وتحويلها إلى نسيج لا مكان له فى دنيا أو دين فى الأوضاع الاجتماعية»[1] .

---

(١) جريدة الأنباء: العدد ٦٢٨٥ .

ولم يغير الشيخ الجليل رأيه فى هذه المسألة الجوهرية، فما بين رأيه هذا فى سنة ١٩٩٣م ورأيه فى بداية الخمسينيات (من هنا نعلم) وما قبل ذلك بسنوات لا يختلف، وهو - رحمه الله - يتناول ذات القضية:

«من طرائف البحوث الفقهية ما شجر بين المجتهدين من خلاف فى صلة المرأة بالمسجد. هل الأجدر بالمرأة أن تتردد عليه كل يوم خمس مرات - فهذا أتم لدينها وأرفع لرتبتها - أم الأولى بها أن تصلى حيث هى فى بيتها؟.

إن ابن حزم يحتج إلى المذهب الأول، قال: «اختلف الناس فى أى الأمرين أفضل لهن؟ أصلاتهن فى بيوتهن أم فى المساجد فى الجماعات؟ وبرهان ما رأينا هو ما ذكرناه فى قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : «**صلاة الجماعة تفضل صلاة المنفرد بسبع وعشرين درجة**»[1]، وهذا عموم لا يجوز أن يخص منه النساء[2].

ونرى الشيخ الغزالى يعقب على هذه المسألة:

«ولست مع ابن حزم فى أن النساء والرجال جميعاً سواء فى سنة الجماعة، والذى أراه أن المرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها، فإذا احتاج الرجل والأولاد إلى إعداد طعام أو تهيئة راحة، ظلت المرأة فى بيتها ولم يجز لها الذهاب إلى المسجد وترك البيت مهملاً ضائعاً، ولها ثواب الجماعة.

(١) أخرجه البخارى ١/١٦٦ والنسائى ٢/١٠٣ ومالك فى الموطأ برقم ١٢٩.
(٢) الإسلام والطاقات المعطلة: ص ١٤٣.

أما إذا قامت بأمانات البيت كلها فالأفضل لها أن تلحق بالمسجد، وتشارك فى الجماعة»(١).

بوادر منعها..!

من المؤسف حقاً أن تلوح فى أفق الإسلام نذر رياح هوجاء مبكرة لتمنع المرأة من حضور الصلاة فى المسجد.. إذ لم يمض سوى زمن قصير على رحيل نبينا الكريم - صلى الله عليه وسلم - حتى اشرأبت بعض الأعناق متطاولة على تعاليمه تحاول نقضها بجرأة:

روى مسلم عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: **«لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنَّكم إليها»** فقال بلال بن عبد الله:

والله لنمنعهن. فأقبل عليه عبد الله بن عمر فسبّه سبّاً سيئاً، ما سمعته سبّه مثله قط، وقال: أأخبرك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتقول: والله لنمنعهن!(٢).

«والغريب أن العالم الإسلامى لم يهتم برواية ابن عمر - على صحتها - بل تبع رأى الولد سيئ الأدب!! وحتى الآن يوجد حظر على النساء من ارتياد المساجد إلا نسبة أقل من ١٠٪ من بيوت الله فى بعض المدن الإسلامية سُمح للنساء بالصلاة فيها»(٣).

---

(١) الإسلام والطاقات المعطلة: ص ١٤٣.

(٢) الإسلام والطاقات المعطلة: ١٤٣، ١٤٤.

(٣) فى تصريحه لجريدة الأنباء: العدد (٦٢٨٥) ضمن زيارة للمملكة العربية السعودية سنة ١٩٩٣م.

وفى دفاعه عن حقها فى الصلاة فى المسجد يقول:

«منذ افتتاح المسجد النبوى بعد الهجرة إلى أن لحق النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالرفيق الأعلى، والنساء يصلين فيه، والباب المخصص لهن لم يغلق قط!.. أى أنهن أدين فيه بين سبعة عشر ألف وثمانية عشر ألف صلاة، وهذا من المتواتر المستيقن الذى تتساقط حوله أخبار الآحاد، فلا يُكترث بها أو يقام لها وزن».

«قال بعضهم: لقد روى عن عائشة أم المؤمنين: «لو رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أحدث النساء بعده لمنعهن المساجد كما منعت نساء بنى إسرائيل» فيجب منعهن لهذا الحديث ولغيره.

ونقول: إن ما وقع على عهد رسول الله امتد أيام الخلافة الراشدة، وبقى المسجد النبوى معموراً بهن دون نكير، بل إن عمر بن الخطاب أمر سليمان بن أبى حثمة أن يؤم النساء فى مؤخرة المسجد فى شهر رمضان»[1].

«وروى الزهرى أن عاتكة بنت زيد زوجة عمر بن الخطاب كانت تشهد الصلاة فى المسجد، وكان عمر يقول لها: والله إنك لتعلمين أنى ما أحب هذا!! فقالت: والله لا أنتهى حتى تنهانى!.

قال عمر: فإنى لا أنهاك!!.

ولقد طعن عمر يوم طعن وإنها لفى المسجد!!»[2].

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٩٦.

(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة ص ١٩٦، دار الشروق القاهرة.

«قال ابن حزم: ولو رأى عمر صلاتها فى بيتها أفضل لكان أقله أن يخبرها بذلك، بل اقتصر على إخبارها بهواه الذى لا يقدر على صرفه. ومن الباطل أن تتكلف إسخاط زوجها فيما غيره أفضل منه، فصح أنهما رأيا الفضل العظيم فى خروجها إلى المسجد فى الغلس وغيره، وهذا غاية الموضوع لمن عقل[1].

«أما ما روى عن عائشة من رفض صلاة المرأة فى المسجد فهو يفتح باباً لإلغاء شعائر الإسلام خشية الأوهام، ومن الممكن أن يقول أى إنسان: لو علم رسول الله ما تجره إقامة الحدود من تهم للإسلام لألغى الحدود!!.

إن هذا القول يعنى أن بعض أحكام الإسلام موقوت، يبقى لظروف خاصة، فإذا انتهت تلك الظروف أُلغيت، والظروف الجديدة الطارئة لا يعلمها صاحب الرسالة فى حياته؛ ولذلك لم يحدث لها تشريعاً..

وهذا التفكير باطل ؛ فإن الله يعلم ما كان ويكون، وقد أذن للنساء بالصلاة فى الجماعات، وأمرهن بالذهاب إلى المسجد محتشمات قانتات عابدات.. فإنهن لم يخرجن لإحدى مسابقات الجمال أو أحد عروض الأزياء»[2].

---

(١) الإسلام والطاقات المعطلة: ص ١٤٦.
(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة : ص ١٩٧- دار الشروق القاهرة.

«والغريب أن النساء مُنعن المسجد وحده! أما غشيان الأسواق والانطلاق فى الشوارع فهذا لا حرج فيه!! إن تحريم المساجد على النساء - كما تفعل شعوب إسلامية كثيرة - من وراء الانهيار الخلقى وفقدان التربية الذى أودى بأمتنا فى هذه الحياة»[1].

ليتنا نتعلم!

كان النساء على عهد نبينا الكريم يصلين الجمعة ويسمعن خطبتها؛ فعن أم هشام قالت:

«ما أخذت (ق. والقرآن المجيد) - أى: حفظت السورة - إلا من لسان النبى - صلى الله عليه وسلم - يقرأ بها على المنبر فى كل جمعة». وذلك لكثرة ترددها على المسجد فى صلاة الجمعة»[2].

وبهذا يشير فضيلة الإمام الغزالى إلى أثر المسجد فى غرس العلوم القرآنية التى لا ينبغى لمسلم الانسلاخ عنها، ولتجد المرأة فى صلتها بالمسجد ما يجده المسافر المتعب فى الواحة الظليلة.

فماذا ترتب على حرمان المرأة من المسجد بسبب فئة جاهلة بحقيقة الإسلام؟!.

حول هذا يقدم الأستاذ الجليل نموذجاً عصرياً قرت به عيون أعدائه من دعاة التغريب، لجرها نحو نشاط مشبوه يترتب عليه انهيار خُلقها، وبذلك يكون هؤلاء الجهلة قد حققوا أحد المحاور الواسعة للإجهاز على الإسلام:

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٩٧، دار الشروق، القاهرة.

(٢) من هنا نعلم: ص ١٥١.

«فى حصار المخيمات الفلسطينية المخزى قرأت نبأ طبيبة إنجليزية حبست نفسها مع المرضى والجياع حتى جاء الفرج بعد لأى. وخرجتْ من المأساة لتحكى ما واجهت من آلام وما أسدت من جميل دون منّ ولا أذى، فقلت: ليتنا نتعلم!

وفيما أنا أفكر وأجتر الذكريات جاء فى نبأ من الأرض المحتلة أن هناك مسابقة بين الفتيات الفلسطينيات لاختيار ملكة جمال فلسطين المحتلة!!، وسرّنى أن خطباء الجمعة فى الضفة الغربية وقطاع غزة هاجموا المحاولة الخسيسة وقتلوها فى مهدها! قلت: أدى علماء المساجد واجبهم.. وبقى شىء لابدّ من تقريره:

إن هناك أشخاصاً يمشون فى سراديب الحضارة المعاصرة كما تمشى الكلاب والفئران فى الظلام لا تعرف إلاّ الفضلات والفضول. سمعت أحدهم يصيح: نحن بحاجة إلى نهضة مسرحية!

وآخر يقول: يجب اعتناق المادية الجدلية!

وآخر يقول: نشّطوا الألعاب الرياضية، وسمعت دابة تشتغل للأسف بالسياسة العامة تقول: لنترك ماضينا كله.

نتركه ونتبع ماذا؟ أيها الحيوان الأنيق؟»[1].

كيف نمنع ما أقرّه الرسول؟ !

إن من يجرؤ على تحريف الأحاديث النبوية الشريفة وفقاً لأهوائه وغاياته.. فهو على الله أجرأ وأكذَب.

---

(١) الحق المر: ج ١ ص ١٠٦، ١٠٧ ـ ط دار الشروق، القاهرة.

«لقد ظل المسلمون ألف عام يمنعون تعلم المرأة، تنفيذاً لحديث مكذوب يوصى بإلزامها الأمية وإسكانها السراديب لا الغرف. فهل هذا ما يريدون نشره؟ وهم إلى الآن يمنعون النساء فى العواصم المحافظة ـ كما تسمى ـ من حضور الجماعات فى المساجد التى تقام فيها الصلوات الخمس، فهل هذا ما يريدون نشره؟»(١).

«فى عصور متطاولة كان نصيب المرأة قليلاً من الرحمة العامة الغامرة التى بعث بها صاحب الرسالة الخاتمة! حاشا عصر البعثة الشريفة والخلافة الراشدة فإن المرأة شهدت أياماً ذهبية»(٢).

«إن تقهقر الأمة الإسلامية فى الأعصر الأخيرة يعود إلى العجز الشائن فى فهم موقف الإسلام الصحيح من المرأة..

وهذا العجز من انتصار المدنية الحديثة وانتشار عُجَرها وبجَرها فى آفاق عريضة، والعلاج يقدمه فقهاء أذكياء منصفون، لا متفيهقون متعالمون»(٣).

ومن واقعنا المعاصر يقدم شيخنا الغزالى صورة جديدة:

«وأمر آخر نذكره آسفين! ذهبت نسوة إلى أحد المساجد للصلاة، وأخذن فى مؤخرة الصفوف مكاناً قصيــًا، فجاءهن إمام المسجد غاضباً يقول : إن المساجد بنيت للرجال وحدهم، قال تعالى:

---

(١) مستقبل الإسلام خارج أرضه : ص ٦٥ دار العدالة للطباعة والنشر، القاهرة، ودار الصحوة.

(٢) و (٣) قضايا المرأة : ص ٦٨، ٦٩.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ ...﴾[1]. وقابلنى هؤلاء النسوة كسيرات كاسفات البال فقلت لهن: هذا رجل جاهل فإن الله يقول: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ..﴾[2]. فهل الصدق فى العهد والوفاء بالوعد والثبات على الدين إلى آخر رمق وقفٌ على الرجال وحدهم؟ فأين قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾[3].

لكن منطق الجهل يفرض سرادقه على جماهير غفيرة من الناس رأوا أن ذهاب المرأة إلى المسجد بدعة منكرة، وأن تلقيها أنواع الثقافات تقليد أجنبى، وأن وعيها بالشئون العامة تطفل مرفوض!.

وامرأة مغلقة على هذا النحو كيف تكون راعية بيت ومنشئة أجيال محترمة؟!»[4].

وليس من عاقل لا يضم صوته ويتفاعل مع هذا السؤال وما سبقه من جهد لتأكيد حقها المشروع عبر الكتاب والسنة لإنصافها فى مسألة بيت الله وتعبدها فيه، وبدورنا نتساءل: هل أثمر جهد الغلاة من هذا الحَجْر سوى أحد أمرين.. فريق منهن استكنّ لذل أغلال التخلف بالحبس!.. وفريق حطمن قيود القهر وانطلقن كالبركان الأهوج فى عربدة وشرود فى دنيا تكفر وتسخر بكل القيم والمواريث السماوية!!.

(١) سورة النور، الآية: ٣٦، ٣٧.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.
(٤) قضايا المرأة: ص ٦٩.

لكل امرأة.. دار عبادة!!:

ومن واقع المعادلة الصعبة يأسى شيخنا الجليل من قضية حرمان المرأة من ينابيع التربية السماوية المتدفقة عبر نشاطات المساجد، فى وقت تفتح فيه كافة الأديان أبوابها على مصراعيها لاحتضانها وتعبدها، بل ووجودها فى كافة أنواع العبادات البوذية الوثنية تلك المقطوعة الصلة بوحى السماء.

والغزالى الذى نذر نفسه للعيش وسط مشاكل المسلمين وقضاياهم العامة والخاصة والبحث عن علاجها ببصيرة نافذة وقلب ذكى يرفض الزيغ ويشير إليه من واقع ما يثار من أحداث ومستجدات تطفو على وجه المجتمع الذى تشكل المرأة نصفه إن لم تزد. ومع إحدى هذه الصور:

«جاءنى يوماً صديق، وأخبرنى أنه استأجر خادمة نصرانية لبيته وأنها اشترطت عليه قبل أن تُسلِّم العمل أن تغيب ساعات يومى السبت والأحد للذهاب إلى الكنيسة!! واستمعت إليه وسرح بى الفكر بعيداً، فلما رآنى شارداً قال لى: فيم تفكر؟ قلت وأنا أعود إلى قضيته: من حق فتاتك أن تذهب إلى معبدها غير أنى آسى لجماهير النساء عندنا، فقد انقطعت حبائلهن بالمساجد، ماتحرص سيدة ولا خادمة على الذهاب إلى المسجد ؛ لأن المتطرفين صبوا فى آذانهن أن الذهاب إلى المسجد محظور...»(١).

هذا الأسى صبه فى كلمات موجعة عبر مؤلف آخر من واقع اهتمامه بهذا الأمر:

---

(١) الحق المر: ج ١ ص ٢٦.

«كل امرأة تتبع ديناً من الأديان يتاح لها أن تذهب إلى معبدها، أما المرأة المسلمة وحدها فمحظور عليها أن تدخل المسجد ؛ لأن التقاليد فرضت عليها ألا تشارك فى جماعة! وعشرات الألوف بل مئات الألوف من المساجد لا يلمح فيها شبح امرأة فى القرى والمدن!

كيف وقع هذا مع أن الصحابيات ما انقطعن عن المسجد النبوى يوماً، ولا خلت صفوف النساء منهن على عهد النبوة والخلافة الراشدة. .

إن الإسلام شىء. . واتجاهات الناس فى معاملة المرأة شىء آخر. ولا ريب أن ذلك يسىء إلى الإسلام، ولعله يوقف رسالته فى هذا العصر!»[(١)].

«فالإسلام يريد أن تصلى النساء فى المساجد، لكن بعد أداء حق البيت، أما حبسها فى البيت وتحريم المسجد عليها لأن ذهابها إلى المسجد ممنوع ابتداء، فهذا باطل، ومخالف للكتاب والسنّة»[(٢)].

المسجد.. وعوائل المغتربين!..

ولأجل نشر الثقافة الإسلامية رأى أن رسالة المسجد لا ينبغى لها الوقوف ضمن حدودها الإقليمية الضيقة. . بل تحلق بجناحيها ماوسعها نحو أفق رحب تُشرح فيه صدور المسلمين وصدور الداخلين فى الإسلام.

(١) هموم داعية: ص ٧٠ دار البشير، القاهرة، ١٤٠٥هـ.
(٢) مستقبل الإسلام خارج أرضه: ص ٦٦.

ومن هنا كان إشفاقه على العمالة الإسلامية المهاجرة والتى تتنامى ويشتد كيانها يوماً إثر يوم، أشفق ـ رحمه الله ـ على المهاجرين وهم يتعاملون سحابة يومهم مع الغربيين الذين يغلب على حضارتهم السلوك المادى أن تلفهم دوامة الحياة وهم فى سعيهم بحثاً عن أسباب الرزق، أو تحسين ظروفهم بشكل يحقق حياة كريمة لعوائلهم، فقد وجّه ـ من واقع نهجه الإصلاحى ـ نداءه إليهم:

«ماذا تعنى هذه الحقائق كلها؟ إنها تفرض علينا نحن المسلمين أن نعيد النظر فى علاقتنا بغيرنا من سائر الملل والنحل، وأن نعود إلى قواعدنا الأولى فى فقه الإسلام وإحسان عرضه، ومن قبل إحسان العمل به وتطبيق أحكامه!.

على المسلمين فى مهاجرهم أن يألفوا المسجد وأن يفتحوه للرجال والنساء والأولاد، وأن يتعهدوا رسالته الروحية والثقافية، وأن يتعارفوا بينهم تعارفاً صادقاً حاراً، فإنّ تلاقى الأجساد لا ثمرة له..»(١).

ولقد عالج داعيتنا الغزالى هذا الموضوع ببنود عديدة تشد المسلمين بعضهم إلى بعض فتخدمهم دينياً ومدنياً من خلال الأنشطة المتاحة سواء ما ارتبط منها بالمسجد أو بالأندية، كاستعمال اللغة العربية فى التخاطب، وتزاور الأسر المهاجرة ؛ لتنضو عنها وحشة الحنين والغربة، بل وتشجيع الزواج بين العوائل الإسلامية. وإمداد هذه المجالات بالدعاة والكتب الدينية والأدبية والمصاحف وغيرها.

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ٤٩.

وينتهى متوِّجاً ترابطهم فى أبسط التكاليف والمعانى الجميلة:

«من رأى أن المهاجرين فى أوروبا وأمريكا يجب أن يسعوا إلى التعرف على الآخرين باسطين أيديهم بالود، وأظن أن التصدق بالابتسامة لا يكلف كثيراً!!»(١).

فزع الغرب.. لماذا؟!

وداعيتنا الجليل دائم التأكيد على أن للمسجد رسالة روحية من شأنها تخطى الحاجز الغربى كى تنطلق فى مسارب عالمية بعيدة عن الفكر الجامد أو الخامل والمعتل!.. إن تعطيل الوجود النسائى فى أعصر تراجع فيها الإسلام.. عاد بقطوفه اليوم مرّ المذاق فى حلوقنا، وهو يلفت انتباهنا:

«إن النساء الغربيات يفزعن عندما يذكر لهن الإسلام، يحسبنه سجاناً غشوماً مستهيناً بحقوق المرأة ومجتاحاً لشخصيتها، ونحن المسئولون عن شيوع هذه التهمة!»(٢).

«وقال لى أحد المبعوثين فى لندن: إن رجلاً إنجليزياً أبدى إعجابه بالإسلام، ثم قال: لكنى أذهب مع امرأتى إلى الكنيسة يوم الأحد، فأين تذهب امرأتى إذا كنتم تمنعونها من المسجد فلا تدخله طوال الأسبوع؟!..

قلت: ما حدث فى أستراليا وفى إنجلترا حجة على المسلمين لا على الإسلام..»(٣).

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ٥٠.

(٢) مستقبل الإسلام خارج أرضه: ص ٦٦.

(٣) هموم داعية: ص ١٤٩، ط دار البشير، القاهرة.

والحق أن هذه التهمة عرضها الغربيون منذ زمن بعيد، ونحوٍ من مائة سنة واجهت الأستاذ الإمام محمد عبده فقال:

«وقد صار هؤلاء الإفرنج الذين قصرت مدنيتهم عن شريعتنا فى إعلاء شأن النساء يفخرون علينا، بل يرموننا بالهمجية فى معاملة النساء، ويزعم الجاهلون منهم بالإسلام أن ما نحن عليه هو أثر ديننا. إن أحد السائحين من الإفرنج زارنى فى الأزهر، وبينا نحن ماران فى المسجد رأى الإفرنجى بنتاً مارة فيه، فبهت وقال: ما هذا؟ أنثى تدخل الجامع!!.

فقلت له: وما وجه الغرابة فى ذلك؟.

قال: إننا نعتقد أن الإسلام قرر أن النساء ليس لهن أرواح، وليس عليهن عبادة!! فبينت له غلطه وفسرت له بعض الآيات فيهن، فانظروا كيف صرنا حجة على ديننا؟ وإلى جهل هؤلاء الناس بالإسلام، حتى مثل هذا الرجل الذى هو رئيس لجمعية كبيرة، فما بالكم بعامتهم»[1].

من المسئول؟..

وتأكيداً لمثل هذه المعانى التى سببها من اعتقدوا أنهم حراس الدين، وكانت فى جملتها تنأى عن روح العقيدة وجوهر الإسلام، محققة مساحات واسعة من مبدأ رفض الفكر الغربى والاقتراب من تعاليمه ومحاولة فهمه، يقول الشيخ الغزالى:

---

(١) د. محمد عمارة: (الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده) سلسلة كتاب الهلال، ص ٥٢.

«لكن كثيراً من مسلمى العصر الحاضر جمعوا شُعَب الإيمان فى خليط منكر، كبروا فيه الصغير، وصغروا الكبير، وقدموا المتأخر وأخروا المتقدم، وحذفوا شُعباً ذات بال وأثبتوا محدثات أخرى ماأنزل الله بها من سلطان، فأصبح منظر الدين عجباً!.. لا بل أصبحت حقيقته نفسها حَرِيّة بالرفض!.

ومن هنا صَدَفَ الأوروبيون عن الدين لا لعيب فيه، بل فى معتنقيه وعارضيه»[1].

«هب أن أوروبياً أو أمريكياً اتهم الإسلام بأنه يحظر على المرأة الذهاب إلى المسجد، وأن الإسلام بهذا الحظر دين شاذ؛ لأن الأديان كلها لا تمنع النساء من التردد على بيت الله، أو على معبدها الخاص بها.. فماذا أقول له؟.

أأصدقه فى اتهامه أم أقول له: إن هذا الحظر ليس من تعاليم الإسلام وإنما من تقاليد بعض البيئات!! أدافع عن الإسلام صادقاً؟ أم أدافع عن المنتمين إليه كاذباً؟.

هناك حراس للخطأ يرتفع عويلهم إلى عنان السماء عندما ينتقد هذا الخطأ، وقد كنت أول أمرى قليل الاكتراث بهذا العويل، بيد أنى وجدته يتحول على مرّ الأيام إلى ضغينة على المصلحين واستباحة لأعراضهم لا يمكن السكوت عليها ؛ لأن الدين نفسه سوف يضار من هذا السكوت، وسوف تتحول حقائقه إلى أباطيل»[2].

(١) مستقبل الإسلام خارج أرضه: ص ٧٣ ـ ٧٥.

(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٨.

ويرى الشيخ الغزالى فى القرآن فصل الخطاب:

«إننى بين يدى كلمات مهمة عن الدعوة الإسلامية أريد توكيد أن القرآن الكريم نبض قلوبنا وضوء عيوننا، ويستحيل أن نفرط فى حرف منه، وأن كل حديث تحدث به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو حكمة غالية نحتفى بها ونحرص عليها.

إن ديننا نزل من السماء ولم يخرج من الأرض، لا واجب إلا ما أوجبه الله، ولا حرام إلا ما حرّمه الله، ولا يقع إيجاب ولا تحريم إلا بنص قاطع، ودائرة الواجب تشمل جملة هائلة من العقائد والأخلاق والعبادات، ودائرة المحرم تضم مجموعة كبيرة من المعاصى والرذائل والآثام!»[1].

***

(١) مستقبل الإسلام خارج أرضه: ص ٧٣ ـ ٧٥.

الفصـــل الثانى:

فى رحاب التربيـــة
و
الدعـــوة

«لو أن جيشاً من علماء النفس والتربية اجتمع ليسوق للعالم مثل هذا الأدب لعجز، والأخلاق شعبة واحدة من رسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ الضخمة».

الشيخ محمد الغزالى

موقف التربية من المرأة!

تقف المرأة على قدم المساواة مع الرجل فى الْغَرْفِ من معين التربية والعلم أيضاً.

وللمربى الفاضل الشيخ الغزالى، آراؤه المميزة، ومعالجاته السديدة فى منهج التربية.. فهى فى خلاصتها.. وتحت أى ظرف تأبى الخروج عن دائرة التعاليم الإسلامية.

وفى أسلوبه الأدبى الراقى يعرّفها:

«إن التربية المنشودة ليست شيئاً سهلاً، إنها معاناة وجهد يقوم به المربِّى والمربَّى معاً، وتشترك فى تحقيق النتيجة عناصر أخرى وفى مقدمتها البيت والبيئة والسلطة الحاكمة ، كما يشترك الماء والشعاع، والحر أو البرد، فى إنضاج الثمار»[1].

«إذا اعتبر هذا النوع من التربية بين الأستاذ وتلاميذ لا يتجاوزون الخمسين تلميذاً فى الفصل عملاً يتسم بالمشقة!.. فكيف يكون وقع الرسالة إذا كان المربى يبنى أمة انطلقت بشعلتها تضىء أرجاء العالم؟.. هذا المربى الذى قال ـ سبحانه وتعالى ـ فيه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم، آية: ٤] ومربٍّ هذه مكانته فى القرآن الكريم، حَفِىٌّ لأن يهتف فى سمع البشرية : «**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

(١) مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية: ص ٣٥، ط نهضة مصر / القاهرة.

القرآن والسنة.. أول منابع التربية:

إن منهج التربية من خلال مربى البشرية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستقى مصادره من أزكاها وأنقاها منبعاً، ويرى الشيخ الغزالى تأثير هذين المصدرين فى بناء كيان المرأة المسلمة:

«إن الإسلام يؤخذ من كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمجتمع الذى يصنعه الكتاب والسنة يجعل المرأة تلد ذريات مشرّفة باهرة الأخلاق»(١).

المسجد.. ورسالة التربية!

«عندما درسنا تراث محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى «الأخلاق» وذاكرنا أحاديثه التى تربو على الألوف فى شتى الفضائل خيّل إلينا: لو أن جيشاً من علماء النفس والتربية اجتمع ليسوق للعالم مثل هذا الأدب لعجز، والأخلاق شعبة واحدة من رسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ الضخمة»(٢).

والحق أن معظم التربية التى وسمت المرأة المسلمة فى صدر الإسلام تلقتها حين كانت جدران المسجد تضم الصحابية بأخيها.. وفى الفصل الأول رأينا كيف أعطى الإمام الغزالى صورة عن مكانة المسجد فى حياة المرأة، وسبل تعميق هذه الصلة وتوثيقها لأنها المنفذ الذى يصلها بأسباب الثقافة الدينية عقيدة وسلوكاً.

---

(١) هموم داعية: ص ١٥١، ط دار البشير ـ القاهرة.

(٢) فقه السيرة: ص ٣٩ ط دار الكتب الإسلامية / الطبعة الثامنة ٢ ـ ١٤ هـ / ١٩٨٢م.

ووعَى المجتمع العربى ـ على عهد السلف الأولين ـ المرأة تتردد على المسجد من الفجر إلى العشاء ، وتتعلم الدين كما يتعلم الرجل. . وقد تقاتل مع المقاتلين. وقد تداوى الجرحى وتدفن الموتى، وتأمر وتنهى وتنصح. . إلخ.

إلا أن التقاليد العربية الجاهلية التى تجتاح الأنوثة قديماً، وتجاوز حقوقها المادية والأدبية عزّ عليها أن يطفر الإسلام بالمرأة هذه الطفرة، فعادت تسلب ما منح الدين ، وتنكر ما أقر، وتعامل المرأة على أساس أنها متعة وحسب!

ومن ثم صدر تحريم ـ من جهات غير معروفة ـ بألاّ تصلى امرأة فى مسجد ، وظل هذا الحظر قرابة اثنى عشر قرناً، ولا يزال إلى الآن يقاوم نصائح المصلحين»[(١)].

ولما عادت المرأة إلى دائرة الثقافة مطلع هذا القرن، كادت صلتها تكاد تكون مبتورة مع المسجد ـ وهو «مصدر التوجيه الروحى والمادى، فهو ساحة للعبادة ومدرسة للعلم، وندوة للأدب»[(٢)] ـ بعد أن استبدلتها بحضارة عصرية يكتنفها غبش كثيف.

وإذا ما واجهت المرأةَ العصرية جدرانٌ صلبة أقامها الاستعمار لتجهيلها دينياً، فماذا عن حظ المرأة الريفية من التربية والتعليم، بما

(١) سر تأخر العرب والمسلمين: ص ٢١ ط نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٦م.
(٢) فقه السيرة: ص ١٩٢ ط دار الكتب الإسلامية / الطبعة الثامنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

عُرف عن الريف من كثافة سكانية؟ وهل مكانتها من المسجد أفضل لما عرف عنها من التمتع بقسط وافر من الحرية والتمسك بأهداب الفضيلة؟ . . إن شيخنا الجليل يميط اللثام عن هذا الجانب من خلال معايشته لحياة القرية حقبة، يقول ـ يرحمه الله ـ:

«فى قريتنا ـ من مائة عام ـ كان النساء يذهبن إلى الأسواق يشترين السلع ثم يعدن بها إلى بيوتهن، وكن يذهبن إلى الحقول يشاركن فى البذر والرى والحصاد!

وما رُئيت امرأة قط فى مسجد، ولا أدت فيه صلاة، سواء أكانت شابة أو شيخة!! كان المسجد محظوراً عليهن ؛ لأن رواية شاردة قررت ذلك، كما كانت المدرسة محظورة عليهن ؛ لأن رواية فاسدة أوجبت عليهن الأمية!!»[1].

ولكن لا بأس أن تقطع مئات الأميال لزيارة الأضرحة ماوسعها . . والتبرك بها!.

الأسرة.. مصدر تربية:

من أجَلّ نعم الإسلام على مجتمعه أن منح المرأة حقوقاً وواجبات متساوية بالرجل قصرت عنها الأمم السابقة التى سامت نساءها ألواناً من القهر والامتهان والزراية!. . فشرائعها وقوانينها حافلة بمثل هذه المعانى الهابطة.

---

(١) تراثنا الفكرى بين ميزان الشرع والعقل: ص ١٦٢ دار الشروق / القاهرة (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م).

«هناك مجتمعات مبتورة الصلة بدين سماوى، ولكن ازدهرت فيها حضارة. . وأنجبت نساؤها الكثير من الفلاسفة والحكماء كالهند واليونان وروما، ما كان أحراهم أن ينظروا إلى المرأة نظرة تساوى ما منحهم المولى من عقول وقّادة. . ولكن نُصدم حقاً بتفكيرهم ، فأشهر فلاسفتهم (سقراط) صورها بفكر كليل : «إن المرأة تشبه شجرة مسمومة ظاهرها جميل، ولكن عندما تأكل الطيور منها تموت حالاً. . !!»[1].

بل زاد أحدهم وقد شاهد امرأة يجرفها الفيضان فقال:

«زادته كدراً على كدر، والشر بالشر يهلك».

أما فى مجتمع دينى كاليهودية مثلاً، فقد جاء فى سفر الجامعة الإصحاح السابع على لسان أحد حكماء بنى إسرائيل:

«درت وقلبى لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلاً، ولأعرف الشر أنه جهالة، والحماقة أنها جنون، فوجدت أمرّ من الموت المرأة. . التى هى شِباك، وقلبها أشراك، ويداها قيود، الصالح قدام الله ينجو منها أما الخاطئ فيؤخذ بها»[2].

ومجتمع بهذا النسيج المتهرئ وهذا الحمق فى نظرته إلى المرأة كيف يعهد إليها لتربى جيلاً وتؤثر فيه؟. .

(١) أحمد موسى سالم: (بناء الأسرة فى هدى القرآن) ص ٨٨ ط أولى، دمشق ١٩٩٦م (الأهالى للنشر).

(٢) أحمد موسى سالم: (بناء الأسرة فى هدى القرآن) ص ٩٠ / الأهالى للنشر والتوزيع، دمشق ١٩٩٦م .

دور المرأة..

أين هذا من سنا الإسلام ؟! حتى قال فيها الله ـ عز وجل ـ:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ...﴾ [النساء ، الآية: ١].

وفى قوله تعالى: ﴿.. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وأين هذا من حديث رسولنا الكريم : «**كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته**» ؟

لا ريب أن هذا أجاز لها تعهد الغرس الإسلامى الجديد، فما ظننا بامرأة تخرجت فى جامعة النبوة ونهلتْ من تعاليم هبط بها وحى السماء.. ولم تنبت من حمقى الأرض!.. حتى أضحت القدوة فى التربية، وغدا تلاميذها من الأبناء والإخوة جيشاً ومجتمعاً ساد الأمم وسما بها ، وأرسى فى مجتمعاتها قواعد الحق، وصاغ حضارة مازال العالم يعيش على سنا أصولها.

وعن هذا المجتمع يقول الشيخ الغزالى:

«ونعلم أن المرأة أحد جناحى المجتمع يستحيل أن يسمو إذا بُترت أو شُلَّت...».

وعن تعهد الأم أبناءها ليل نهار بالسهر على خدمتهم وتوجيههم يقوْل ـ من واقع تقديره واعترافه بمنزلتها التربوية ـ:

«إن وظيفة المرأة فى بناء الأسرة، وبالتالى فى بناء الأمة تحتاج إلى جهد يتصل فيه عمل الليل والنهار[1]».

«من أجل هذا قلت : إن وظيفة ربة بيت ليست وظيفة هينة، إنها منصب آخر فوق مآرب اللذة، ومطالب الشهوات الجنسية»[2].

ومعروف أن الشيخ الغزالى رغم أسلوبه الأدبى الرفيع وكلماته ذات الرنين الشعرى الرفاف ، يوشى كتاباته بالشعر كما توشى أقمشة الحرير بخيوط الذهب. ومن هنا ساق بعض أبيات شاعرنا الكبير «معروف الرصافى» تنم عن مكانة المرأة الرفيعة وهى أم مؤمنة فاضلة تحتضن الطفل رضيعاً وتنشئه جيلاً يخدم دينه ومجتمعه:

ولم أر للخلائق من محل ... يهذبها كحضن الأمهات
فحضن الأم مدرسة تسامت ... بتربية البنين أو البنات
وأخلاق الوليد تقاس حُسناً ... بأخلاق النساء الوالدات
وليس ربيب عالية المزايا ... كمثل ربيب سافلة الصفات
وليس النبت ينبت فى جنان ... كمثل النبت ينبت فى الفلاة[3]

والتربية.. تضامنية:

من أساسيات التربية الحنو، وفى هذا المجال يشترك الإنسان والحيوان، بيد أن قانون التربية عند الإنسان كما يرى الغزالى:

---

(١) و (٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٣٣.

(٣) من هنا نعلم: ص ١٦٨.

«.. فالإنسان لا يربى الجسد وحده ، وإنما يربى معه العقل والعاطفة ، ومسئولية الأبوين تتجاوز توفير الغذاء إلى توفير الآداب الرفيعة والشمائل الحسنة»[1].

ومن هنا نجد أن تربية الأبناء وإن كان أساسها الأم، لكنها تبقى تضامنية من خلال عميدى الأسرة.

دور الأب:

«وليس المهم أن توفر لأولادك ثروة طائلة، إنما المهم أن توفر لهم عقلاً ذكياً، وخلقاً قوياً، ومسلكاً زكياً، وهذا معنى الحديث الشريف : «**ما نحل والد ولداً من نحل ـ أى: ما أعطاه عطاء ـ أفضل من أدب حسن**» وفى رواية أخرى : «**لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع**»[2].

وفى منهج التربية يرفض الأستاذ الجليل ظلم الفتاة فى العقوبة دون أخيها بعيداً عن أحكام الشريعة الإسلامية.

فالأب ـ وهو عميد الأسرة وأحد قطبى التربية فى سلامتها أو فسادها ـ عليه الابتعاد عن معالجة انحراف الأبناء بانحرافه هو، وذلك بوقوعه تحت تأثير أهوائه ومحاباته بترجيح كفة التقاليد على تطبيق العدل الربانى، فنصوص زنى الرجل والمرأة واحدة :

(١) الحق المر ، ج ٤ ص ٧٣.
(٢) الحق المر ، ج ٤ ص ٧٣. والحديث أخرجه الإمام أحمد ٥/٩٦ والحاكم فى المستدرك ٤/٢٦٣ والطبرانى فى الكبير ٢/٢٧٤ عن جابر بن سمرة، وقال: هذا حديث غريب.

«إن الصورة المتقطعة الممسوخة لوظيفة المرأة فى الأمة كما رسمها الزمن المتأخر، ليست إلا نضح نفوس عليلة لم تفقه الإسلام ولم تحسن العمل به أو العمل له..!!.

والغريب أن هذه الغيرة التى أحرجت المرأة، وشوهت حياتها لم يكن لله فيها نصيب..

فقد يعلم الرجل أن ابنه زنى فما يتغضن شىء من أسارير وجهه.. فإذا اتهمت ابنته بذلك قتلها لفوره..!!

وقد يقوم البيت على الربا والفسق، والكذب، وترك الصلاة والصيام والزكاة..!!.

إن هذا كله لا يشين ولا يخدش الحياء!!!.

لكن تدلى المرأة إلى موطن شبهة هو الجريمة النكراء التى لاتغسل إلاّ بسفك الدماء!!»(1).

إنها صرخة من مربٍّ ومصلح غيور يخشى على أبناء أمته ودينه الابتعاد عن منهج الله سبحانه فى التربية العادلة!.

وسائل عصرية..

ومع أن أغراض التربية لم تتغير ـ كما وردت أصولها فى القرآن الكريم والسنة الشريفة ـ فإن أساليبها تغيرت وتشعبت من خلال أجهزة العصر المتطورة، أثارت بعضها جدلاً ولقى بعضها إعراضاً

---

(1) الإسلام والطاقات المعطلة: ١٤٢.

من بعض الفئات المتشددة. وللشيخ الغزالى رأيه فى تشجيع العقل الإسلامى الذكى لاقتحام مجالات العلوم الإنسانية بتكنولوجيتها العالية، ونبذ كل ما يشد المسلم إلى عجلة التخلف والجمود، وعنده لا تعارض قط بين العلم والدين:

«لقد أشاعت المدنية الحديثة «الراديو والتليفزيون» وغير هذا من الأجهزة الناقلة للثقافة والملاهى على سواء ، ومعروف أن هذه الأجهزة غير مسئولة عما يصدر عنها»(١).

«لقد كان من المستطاع أن نتوسل بهذه الأجهزة لإشاعة اللغة السليمة ، وتذوق الآداب الرفيعة ، وحماية الأخلاق ، ودعم التقاليد الفاضلة، بل كان من الممكن أن تدرب الألوف على إتقان حِرَفٍ نحن محتاجون إليها» و«كان من الممكن أن نحارب عادات ضارة موروثة أو مستوردة انتشرت بيننا ووقفت مسيرتنا.

إن وسائل الإعلام ـ لو أحسنا استغلالها ـ تصنع الكثير، ولكن ذلك لا تستطيعه إلا أمة تحس أن لها رسالة فى الحياة، أما الأمة الذَّنَب فقد سقط عنها التكليف لأن غيرها يشدها»(٢).

* * *

(١) ، (٢) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص ٩٧ دار الشروق/ مارس ١٩٩٦م، القاهرة.

في حقل الدعوة

رجلها الوفي:

اقترن اسم التربية بالتعليم، وعندما ربطته بالدعوة فإنما قصدت أن التربية الإسلامية الأولى انطلقت من فم النبوة المعطاء.. فما قيمتها إن لم تنطلق وتنتشر في مسارب العالم عن طريق الدعاة؟ ومن جيش الدعاة يبرز أستاذنا الغزالي كشيخ الدعاة المجددين في عصره. الدعوة التي احتضنها قلباً وفكراً وعملاً وهو - بعد - طالب أزهري، حتى انتقاله إلى جوار ربه، والدعوة رطبة على لسانه.. وانتخب كأحد أبرز أربعة دعاة في العالم من خلال أضخم استفتاء قامت به جريدة «المسلمون» ولا ريب فهو الداعية الذي أرسى قواعد الدعوة في عصرنا وفق أيسر الأساليب وأنجحها.

ومن واقع غيرته على ميادين الدعوة وساحاتها الرحبة، ورد في الغلاف الأخير لكتاب «من هنا نعلم» عن دار نهضة مصر كلمة للناشر :

«همس الغزالي للأستاذ خالد[1] يوماً قائلاً: أخشى المنية قبل البلاغ.. إن في رأسي أفكاراً وددت لو أخرجتها إلى حيز الوجود..

فردَّ خالد قائلاً: إنني أشهد أنك جاهدت جهاد الجيوش وبلّغت الأمانة».

وفي بعض كلمات تأبينه قال فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر السابق «جاد الحق على جاد الحق»:

---

(١) هو الكاتب الإسلامي الراحل خالد محمد خالد.

«. . إنه تحمل الكثير والكثير. . ووُجهت إلى فضيلته الانتقادات الكثيرة من أصحاب الأقلام المسمومة. . .» حتى قال:

«وكفاه شرفاً أن وافته المنية وهو فى مجال الدعوة. .»(١).

أما فضيلة المفتى الدكتور محمد سيد طنطاوى ـ شيخ الأزهر ـ فقد قال فى علمه وتجاربه ودعوته:

«يجب أن يستفيد منها كل الدعاة والعلماء. .»(٢).

وبالنسبة لتلميذه وصديقه المفكر الأستاذ الدكتور محمد عمارة:

«لقد جمع ما يندر أن يجتمع فى عالم واحد. . جمع بين قلب الداعية وعقل الفقيه المجدد، وشجاعة المرابط على ثغور الإسلام الفكرية. .»(٣).

إذن لا غرو «أن كان يجتمع لسماع خطب إمام الدعاة فى الأعياد حوالى ربع مليون نسمة. .» لقد كان الداعية الغزالى رجلاً فى أمة أينما زار بقاعها تناول قضاياها من حيث أهميتها التى تكاد تنسحب بهمومها على أجزاء كبيرة منها وتجاوز ما دونها، لكنه بفكره الوهاج وعقله المتلألئ لم يسقط قضايا قد تبدو فردية فيتناولها ويعالجها، إذ السكوت عنها قد يجر إلى فتق أوسع فى ثوب الأمة!. .

المرأة.. والدعوة!

الإسلام دين حوار بدليل اعترافه بالأديان السماوية الأخرى، أما المسيحية فدين مانع لا يقبل فتح صفحة مع دين آخر.

---

(١) و (٢) و (٣)جريدة الجمهورية القاهرية ، العدد (١٥٤١٤).

أما اليهود فقاوموا الإسلام رغم اعتراف أحبارهم بوجوده فى توراتهم.. فهم الشعب المختار ووارثو العالم. والإسلام عرف الدعوة منذ بدايته فهو مكلف بتوصيلها إلى المرأة كالرجل. وبالمقابل تقع مسئولية الدعوة على كليهما:

«والمرأة مطالبة بنشر تعاليم الدين والدعوة إليه وتحبيبه من أصحاب الديانات الأخرى ولها الأجر من الله سبحانه.. ﴿ **لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ** ﴾ [آل عمران، آية ١٩٥] وقد حفل تراثنا الإسلامى بترجمات ثرية تدور حول الموقع المميز للمرأة فى الإسلام، فقد تحدث عن داعيات منهـن:

«**أم شريك**» الصحابية القرشية ، وأول ما يسمى ـ بلغة العصر ـ وكالة أنباء.. فقد كانت تدخل البيوت وتعرض على النساء الدعوة إلى الله، ولطالما عُذِّبت بسببها!..

«**أسماء بنت أبى بكر**» التى لقيت العنت من أبى جهل وزمرته وهى تنقل الطعام والأخبار بشجاعة منقطعة النظير إلى صاحبى الغار ـ عليهما السلام.

«**أم سليم**».. وقصة مهرها الشهير ـ خدمة للدعوة ـ من أبى طلحة.

«**أم كلثوم**» بنت عقبة بن أبى معيط ـ ذلك الأب الكافر ـ ومطاردة إخوتها إياها فى رحلة الهجرة والفرار المرعبة المضنية فى سبيل الله ورسوله، وهدية رب السماء لها «سورة الممتحنة»..!!.

صور ناصعة للمرأة من مجد الدعوة..

وحتى فى الأعصر المظلمة التى تقهقر فيها وضع المرأة، كانت هناك داعيات وواعظات وفقيهات، ولقد تناول أستاذنا الجليل منهن الكثيرات فى كتاب «تراثنا الفكرى» قائلاً بفخر:

«وددت لو أن مساجد العواصم الكبرى فى عالمنا الإسلامى المعاصر يُدرِّس بها مثل هذا الصنف من الواعظات القانتات المجيدات..

إن الحاجة إليهن ملحة مع الغزو الحضارى الفتان الذى نتعرض له، لكن دون ذلك جنادل من أدعياء التدين الزاعمين بأن المرأة لم تخلق لهذا (!) كأنها لا تصلح إلا فراشاً لفحل لا هنا ولا هناك!!». (1)

لقد كان ـ رحمه الله ـ يعمل على إعداد الداعية ما وسعه ، وفى أى قطر يوجد فيه رغم المعوقات..

فقد قال فى الجزائر مثلاً:

«ولقد تحدثت مع المسئولين فى وزارة الشئون الدينية بالجزائر أن تعقد المساجد الكبرى حلقات وعظ وإرشاد وتربية للنساء ، وخاصة فى أوقات مختارة يقوم بالتدريس فيها خريجات الجامعة الإسلامية!.

ولا أدرى أتنجح بهذا المسعى أم يتغلب المتفيهقون الجهال الذين يتصايحون بين الحين والحين بأن صوت المرأة عورة..!

(1) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل : ص ١٦٠.

إن هؤلاء المتصايحين لا تتمعر وجوههم لبعثات التبشير التى تنجح فيها الراهبات المسيحيات فى بلوغ أهدافهن.

إنهم مشغولون بشىء واحد، جعل المرأة رهينة محبسين من الجهل والقهر.. وجعل الأمة كلها تترنح تحت وطأة التخلف الثقافى والسياسى فى عصر الذرة والفضاء»[1].

هناك.. كيف تدعو المرأة؟!:

يلفت شيخ الدعاة بصائر المسلمين نحو ميادين الدعوة العالمية حيث الغرب والسباق المحموم لابتكار أنجح السبل لقيادة العالم تحت مظلتها:

«نظرت بعيداً عن دار الإسلام وراقبت زحام الفلسفات والملل التى تتنافس على امتلاك زمام العالم.. فوجدت الإعلاميين أو الدعاة يُختارون من أوسع الناس فكراً، وأرقهم خلقاً، وأكثرهم حيلة فى ملاقاة الخصوم وتلقف الشبهات العارضة..

حتى البوذية ـ وهى دين وثنى ـ رُزقت رجالاً على حظ خطير من الإيمان والحركة.. لقد طالعت صور الرهبان البوذيين الذين يحرقون أنفسهم فى (فيتنام) ليلفتوا الأنظار إلى ما يصيبهم من اضطهاد.. وعرتنى رجفة لجلادة الرجال والنساء الذين يفعلون ذلك!

فلما رجعت ببصرى إلى ميدان الدعوة فى أرض الإسلام غاص قلبى من الكآبة!.

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ٢٠.

كأنما يُختار الدعاة وفق مواصفات تعكر صفو الإسلام، وتطيح بحاضره ومستقبله. . »[1].

«وألفت النظر الآن إلى أن الدعوة لا تنتهى بخطبة بليغة أو حوار ناجح! فقد دخل ميدانها أطباء ومهندسون وكيمياويون وزراعيون تساندهم هيئات متخصصة وتفتح أمامهم الطريق. والرجال والنساء سواء فى خدمة الغرض المحدد، ونحن ذاهلون أو مشغولون بما لا يجدى. .

قرأت فى أخبار العالم الإسلامى (١٧ / ٢ / ١٤٠٣هـ) هذا الخبر تحت عنوان «من أساليب التنصير الماكرة»:

«راهبة فرنسية الجنسية اسمها أمانويل، نشرت بعض الصحف العربية بأنها تسعى فى القاهرة لإقامة مصنع تحيل به الصحراء إلى بساتين وجنات، وتفكر فى إقامة المصنع لاستغلال «الزبالة» وتحويلها إلى أسمدة زراعية ليعود ريع هذا المشروع الضخم إلى «زبالى» مصر. . »[2].

وأنقل ما أورده الأستاذ الغزالى باختصار. . فقد استطاعت ضمن جولة فى أوروبا جمع تبرعات ضخمة من أجل مشروعها (الإنسانى!) هذا الذى يحول أرض مصر جناناً تخدم فقراءها. ومع أن أسلوب الراهبة الماكرة يقع تحت خدمة المخطط التنصيرى البعيد

---

(١) هموم داعية : ص ١٥٨.
(٢) مستقبل الإسلام خارج أرضه : ص ١٧٧ ، ١٧٨.

المدى، نلحظ بأن صحفنا الإسلامية المخدوعة لا تكتفى بإيراد الخبر مجرداً إنما «أخذت تمجد هذه «البطلة» وتشيد بمشروعها «الإنسانى» وتصفها «بالأخت». ويتابع الداعية الغزالى تساؤله موقظاً النائم المسلم من سباته العميق:

«هذه راهبة أخلصت لوظيفتها إخلاصاً فتق لها الحيلة، وكشف لها الميدان الذى تدعم به دينها، فأين كنا؟ ولماذا لم نسبق إلى أداء واجبنا؟.

إن هذه السيدة لها أخت فى الهند (١) نهضت بأضعاف هذا الجهد المثمر، وقد نالت جائزة «نوبل» وذهبت إليها ملكة إنجلترا لتقلدها أرفع وسام إنجليزى تقديراً لها..

إننا غُزينا فى عقر دارنا! لا غزواً عسكرياً ولكن غزواً عقائدياً، ومن العجز إلقاء تبعات فشلنا على الآخرين»(٢).

لدينا داعيات!

وبخبرته الطويلة يرى الداعية الغزالى ـ رحمه الله ـ الدعوة الإسلامية ـ لكى تنجح ـ لابد من رفدها بالمال وإفساح المجال أمام المرأة أيضاً. كما يأسف شيخنا الغزالى لأوضاعنا الراهنة:

«لدينا أغنياء قادرون على مثل هذا العطاء، بيد أنهم يضنون فى سبيل الله ولا يضنون به فى سبيل اللهو والعبث. ولدينا نساء

---

(١) هى الراهبة المعروفة باسم (الأم تريزا).

(٢) مستقبل الإسلام خارج أرضه: ص ١٧٧، ١٧٨.

يملكن الطاقة الروحية التى تملكها السيدة «تريزا» لكن الدعاة الجهال والفقهاء الأغبياء يمنعونها من العمل ويستنكرون عليها الجهاد الاجتماعى. ويوم وجدت من يقدّر مواهبها ويتيح لها الخدمة العامة وثب عليها الحاكم العسكرى بحديده وناره ليستبيحها جسداً وروحاً»(١).

ولعل هذا هو المؤشر الحقيقى بيننا وبين الغرب عندما يدعو كل منا إلى دينه!!. وللداعية الغزالى كلمة :

«وأمتنا ملأى بنفوس مؤمنة حافلة بالنشاط والذكاء ، بيد أن الأبواب أمامها موصدة! من أوصدها؟ أعرف نساء أرجح من الراهبات الآنف ذكرهن، أعياهن الاعتقال والابتذال والتعرض لما لا يقال!! وأعرف منهن من تقدر على الكثير ، ولكنها لو خرجت لمثل ما نجحت فيه تلك الراهبة لقال لها ثرثار سليط : ارجعن مأزورات غير مأجورات!!»(٢).

وفى مجال الفروق المؤلمة:

«وقد لاحظت فى الشمال الأفريقى وأقطار أخرى أن الراهبات ـ سيدات متزوجات، وغير متزوجات ـ يخدمن بحماس واستبسال»(٣).

(١) الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا: ص ٨٠، ط دار الصحوة ، القاهرة.
(٢) مستقبل الإسلام خارج أرضه: ص ١٧٩ .
(٣) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث : ص ٥٣، ط دار الشروق، القاهرة.

وداعيات.. من غير ديننا!!

ومن واقع العناق المزدوج فى العمل على تخميل المرأة عندنا وخمولها أيضاً:

«فى حصار المخيمات الفلسطينية المخزى قرأت نبأ طبيبة إنجليزية حبست نفسها مع المرضى حتى جاء الفرج بعد لأى، وخرجت من جوف المأساة لتحكى ما واجهت من آلام، وما أسدت من جميل دون منّ ولا أذى ، فقلت : ليتنا نتعلم!..»[1].

وإن تكررت هذه الصورة فإنما لعمق مغزاها.

وهو - يرحمه الله - فى موضع آخر يقول : «وتحملت أكل الموتى من الحيوانات والجثث ثم خرجت ببعض الأطفال العرب آخر الحصار لتستكمل معالجة عللهم فى إنجلترا»[2].

«وفيما أنا أفكر وأجتر الذكريات جاء نبأ من الأرض المحتلة حول مسابقة بعض الفتيات لاختيار ملكة جمال فلسطين[3]».

«إن هناك نشاطاً نسائياً عالمياً فى ساحات شريفة لا يجوز أن ننساه لما يقع فى ساحات أخرى من تبذل أو إسفاف».

ومن المؤلم والمؤسف معاً أن نرى داعيات من غير ديننا!.. يزلن أكوام النسيان عن تراثنا وفكرنا وحضارتنا من خلال اطلاع

(١) الحق المر: ١/ ١٠٦.
(٢) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص٥٣، ط دار الشروق، القاهرة.
(٣) الحق المر: ١/١٠٦.

واسع ومؤلفات نفيسة من المستشرقات المعتدلات. بل ومنهن من يطفن فى أقطارنا يحدثننا عن حضارتنا!!.

وفى أمثال هؤلاء النسوة يجب ألا ننسى المستشرقة الألمانية «زيغريد هونكه» وكتابها الرائع «شمس الحضارة تشرق على العالم»، وكذلك البروفيسورة «أنَّا مارى شيمل» المعروفة بمناصرتها للإسلام ، ومن أبرز كتبها العديدة فى هذا المجال « وأن محمداً لرسول الله»، و«الشمس المنتصرة». وفى مثل هذه الأصوات الصداحة المتغنية بروح الإسلام وفكره، وفى سيدة المخيمات (الإنجليزية) يقول أستاذنا:

«وقد ذكرنى الجهاد الدينى والاجتماعى الذى تقوم النساء غير المسلمات به فى أرضنا أو وراء حدودنا بالجهاد الكبير الذى قامت به نساء السلف الأول فى نصرة الإسلام..

لقد تحملن غربة الدين بشجاعة ، وهاجرن وآوين عندما فرضت الهجرة والإيواء وإقامة الصلوات رائحات غاديات إلى المسجد النبوى سنين عدداً ، وعندما احتاج الأمر إلى القتال قاتلن..

قبل ذلك أسدين خدمات طبية ـ أعنّ فى المهام التى يحتاج إليها الجيش ـ وقد ساء وضع المرأة فى القرون الأخيرة، وفرضت عليها الأمية والتخلف الإنسانى العام»[1].

---

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث : ص ٥٣.

من أساليب اغتيال الدعوة..

يقول أستاذنا الغزالى:

«هناك تحديات تواجه الدعوة الإسلامية، بل تواجه الرسالة الإسلامية ذاتها ، أقلها فى الخارج وأكثرها فى الداخل!!»[1].

ولقد شخصها الأستاذ الغزالى بمهارة الطبيب الحاذق ـ ما بين مؤلف أو مؤتمر أو ندوة أو خطبة ـ فلم يدع هذه العلل والأدواء التى تعرقل مسيرة الدعوة حتى وصف لها العلاج ، ولم يبق سوى أن يتناولها مرضى الدعوة كى يبرأوا وينطلقوا نحو واجبهم فى الآفاق.

ومن هذه الأساليب :

أولاً: إحساس المرأة بالظلم!:

مأساة أن يهدم الإسلام فى الخارج عن طريق أعدائه!.. أما أن يهدم من الداخل بمعاول المسلمين فهذا هو المصاب الحقيقى الذى يتهدد الأمة ، لا سيما من يعرض الإسلام عرضاً رديئاً تشم منه رائحة الجهل بمكانة المرأة وتجهيلها أيضاً. فعلاوة على فشلهم، سارع أعداء الإسلام باستثمار القضية لصالحهم!.

ولم يكن الشيخ الغزالى وهو الداعية المتمرس المتابع لقضايانا الإسلامية ليغيب عنه ظلمها، فتعرّض له موضحاً أبعاده وآثاره الخطرة:

---

(١) دستور الوحدة الثقافية: ص ١٢.

«المصيبة أن بعض المتحدثين فى الإسلام لديهم مقدار هائل من قصور النظر وقلة الوعى!.. والأدهى من ذلك أن يتحول هذا الفكر السقيم إلى مبدأ تؤلف فيه كتب وتبنى عليه مواقف!.

أكثر هؤلاء لا يعرفون مكانة الأسرة فى المجتمع، ولا مكانة المرأة فى دعم الأسرة . والشائعة الكبرى التى يطلقونها عن الإسلام أنه يحتقر الأنوثة ويضن عليها بالحقوق الطبيعية للإنسان السوى، حتى شاع فى أرجاء الدنيا أن الإسلام عدو المرأة وظالمها وواضع العقبات فى طريقها إن أرادت الارتقاء..

ونساء العالم يشعرن كأن الإسلام يُكِنُّ لهن البغضاء، ويرى الموت أستر لهن من الحياة!..».[1]

الحصاد..

«وقد رأيت أن أجهزة التبشير ترقب العالم الإسلامى بمكر، وتحاول اختراقه من ثغرات تتوهمها أو تجدها، وقد رأت أن أعداداً من المسلمين تهين النساء وتستكثر عليهن ما آتاهن الشارع الحكيم فسعت إلى تنصير المرأة وإشاعة أن المراد إنقاذها من جور الإسلام..

وتوجد الآن جمهرة من المثقفات وقعن فى هذا الشرك ، والسبب الأول بعض المتحدثين فى الدين من الجاهلين والتافهين»[2].

إن عرض الإسلام فن ينبغى أن يتعلمه المشتغلون فيه حتى

(١) تراثنا الفكرى فى ميزان العقل والشرع : ص ٦٣.

(٢) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم: ١/ ٢١، ط دار الشروق، القاهرة.

يخاطب النفوس القلقة ويناجى القلوب الحائرة..» ومع صورة مأساوية ثانية:

«وعندما تزوجت فتيات ـ مسلمات بالوراثة ـ فتياناً أقباطاً، أو أمريكاناً مسيحيين حدثت ضجة كبيرة لهذا التصرف الشاذ.

واعتبرناه نحن المؤمنين خروجاً على الإسلام وارتداداً عن الملّة..

ووصلت صيحات المستنكرات إلى آذان أولئك النسوة غريبة نابية.. أجل غريبة نابية لأنهن للأسف منطقيات مع أنفسهن.

فهن لا يعرفن عن الإسلام شيئاً، وليس فى قلوبهن إيمان به أو إجلال له»(١).

وشيخنا الغزالى يرفض السلبية أمام مصالح الأمة!.

فالدعاة لدينا لا يتناولون أمراض المجتمع من خلال قلم ذكى أو خطبة مؤثرة.. أو.. أو.. كلا فالأمر لا يجدى، ينبغى الأخذ بأسباب العلل المستشرية فى مجتمعنا ولا نرسلها حتى ندفع لها بالدواء..

لذا يرى الأستاذ الغزالى فى النسوة المرتدات:

«وهذه الحالة لا تعالج إلا بإعادة الإيمان أولاً إلى تلك القلوب الخربة.

فيا من يعنيهم أمر النساء! املأوا أفئدتهن بالعقيدة الصحيحة.. ثم اعرضوا بعد ذلك ما تطلبون»(٢).

---

(١) ، (٢) من هنا نعلم : ص ١٤٨.

وصرخة جديرة بالاهتمام..

ومن الشعور بالظلم وصلت الشيخ الإمام هذه الصرخة يوم كان يعمل فى الجزائر، وهو ـ رحمه الله ـ على ما هو عليه من شفافية الروح ورقة القلب نحو الإسلام والمسلمين ليقول وكله ألم:

«بلغنى أن طالبة ساذجة فى أحد المعاهد قالت لأمها: أما يوجد دين آخر أرفق بنا من هذا الإسلام؟؟.

لقد شعرت أننى أُطعن فى فؤادى عندما سمعت هذه الطالبة!!.

إن الدين الذى كرم الإنسان ذكراً كان أم أنثى أمسى على ألسنة بعض الفتانين الجهال هواناً بنصف الإنسانية وتحقيراً لها..!!»(١).

ثانياً: المرأة والصورة المنفرة:

اهتم الأستاذ الغزالى بالدعاة لأنهم قلب الدعوة النابض بألق الحياة، وصوتها المعبر عن الإسلام.. وعلى سلوكهم يتوقف إنجاح الدعوة أو إفشالها: «لذا لا أزال أنصح الإسلاميين بأن يرعوا الحكمة فى مجال الدعوة، وألا يُمكّنوا خصوم الإسلام من النيل منه بسبب حماس طائش»(٢).

«فقد رأيت بعض الناس مصاباً بحَوَلٍ فكرىٍّ لا تنضبط معه الحقائق . وقد يرى العادة عبادة والنافلة فريضة، والشكل موضوعاً،

(١) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل: ص ٤٨.

(٢) الحق المر: ٤/١٧٩، ١٨٠.

ومن ثم يضطرب علاجه للأمور، وتصاب الدعوة على يديه بهزائم شديدة»[1].

لذا يحذرنا الداعية الغزالى من عرض الإسلام عرضاً مشوهاً أمام الغرب أو غيرهم.. وخاصة ما يتعلق بمكانة المرأة المسلمة، وبهذا الصدد يشير فى حواره مع سفير:

«كنت فى ملتقى الفكر الإسلامى عندما تحدث السفير الألمانى عن الإسلام وقال للحاضرين: يجب أن تصححوا أوضاع المرأة عندكم! فإن صورة المرأة الإسلامية تنفِّر الأوروبيين من الدخول فى الإسلام!!»[2].

«والرجل بعد أن شرح الله صدره للإسلام يقول للمسلمين: أحسنوا عرض دينكم، ولا تصدوا الآخرين عنه بسوء الفهم وسوء العمل! لنفرض أن رجلاً كل رأسماله فى السنة حديث الحاكم فى «المستدرك» أن المرأة لا تتعلم الكتابة، أو حديث صاحب «الزوائد» أن المرأة لا ترى رجلاً ولا يراها رجل، ثم جاء هذا المسكين ببضاعته المزجاة أو أحاديثه الموضوعة والمتروكة يعرض الإسلام على أهل أوروبا أو أميركا، هل يدخل فى الإسلام أحد؟ هل يحترم الإسلامَ رجلٌ أو تحتفى به امرأة ؟!.

---

(١) الحق المر: ٤/١٧٩، ١٨٠.

(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة : ص ١٥.

إن بعض المسلمين يعرضون دينهم مزوراً دميم الوجه، ثم يذمون الناس لأنهم رفضوه»(١).

ثالثاً: والخطبة أيضاً:

يرى الداعية الغزالى أن المرأة التى كرمها الله سبحانه من فوق سبع سموات.. لا تهان من فوق المنابر!! والله الذى منحها حقوقاً ما عرفتها الجاهلية قط.. لا تسلب من قبل خطباء لهم نصيب وافر من الجهل ورصيد واه من فقه العبادات وأصول الدعوة!

ترى ما قيمة الخطبة إذا أوغرت الصدور وحاولت تفتيت البنية الاجتماعية، وشجعت على إقصاء أحد طرفيها حتى لكأن بين المرأة وبين الخطباء المتشددين ثأراً قديمًا لا يسوّى إلا بسجنها سجناً مؤبداً لا يقبل الاستئناف!

إن شيخنا الجليل يهتف:

«إننى أطلب من المشتغلين بالدعوة أن يتفقهوا فى الدين؛ فإن من يرد الله به شراً يحرمه من الفقه فى الدين، ولو كان ثرثاراً يخطب فى كل ناد»(٢).

و من الخطباء من يطعن الإسلام من حيث لا يدرى فقد «استغل الشيوعيون هوسهم الدينى فقادوا مظاهرة إلى المجلس التشريعى منادين باحترام حقوق الإنسان وحفظ كرامة المرأة..

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٥.
(٢) دستور الوحدة الثقافية: ص ٢٢٠.

ونحن المسلمين أعرف الناس بذلك كله.. ولكن سفهاءنا غلبونا على الرأى، وليس أغيظ لنفسى من الدعاة الجهلة عندما ينفرون الناس من الإسلام بسوء تصورهم وتصويرهم له»[1].

فماذا قال الخطباء حتى سارت المظاهرات إثر خطبهم؟!..

«ما الذى دعا الشيوعيات إلى التصايح ضد قانون الأسرة فى الجزائر والمطالبة بإلغائه؟

الذى دعا إلى ذلك خطباء ودعاة إسلاميون، تحدثوا عن موقف الإسلام من المرأة حديثاً استفزّ أولى الألباب، وبعث فى النفوس الوجل من مستقبل يستولى فيه أولئك الإسلاميون على الحكم!!

يقول أحدهم: الإسلام يرى أن المرأة إنما خُلقت لتلد الرجال!! ويقول ثان: مقارّ النساء فى البيوت، لا يخرجن منها إلا إلى الزوج أو القبر! ويقول ثالث: يجب أن تظل الفتاة أمية لا تكتب ولا تحسب! ويرفق رابع بها فيقول: حسبها إتمام المرحلة الابتدائية فى التعليم، وما وراء ذلك لا داعى إليه..!»[2].

رابعاً: المسلمة.. ومكر النشاط العالمى:

لعل الشيخ الغزالى أنشط من تصدى لمخططات الاستعمار ونشاطاته ووسائله الماكرة، ما كان منها داخل البلاد الإسلامية أو خارجها معريّاً مخالب أعوان الاستعمار التى حاولوا حجبها بقفازات مخملية:

(١) و (٢) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل: ص ٤٨، ٤٩.

«والعالم الصليبى ضائق بالإسلام منذ ظهر. ولقد اشتبك معه فى حرب طويلة، اشتركت فيها شعوب أوروبا جمعاء وترادفت حملاتها حيناً من الدهر.

وإذا كانت هذه الحروب لم تقض على الإسلام فإن مخلفاتها الدامية رسبت فى نفوس الصليبيين، والتصقت بأفئدتهم ومست ذكريات متقدة فى السرائر.»[1].

كان حصيلتها نشاطاً لضرب الإسلام، ينساب انسياب رقطاء فى ليلة طمست نجومها وغاب قمرها!!.

لقد تناول الإمام الغزالى بتفصيل وحكمة نشاطات الاستعمار لوقف الدعوة عبر مؤلفاته القيمة الغزيرة، ونحن نتناول هذه المحاور الواسعة فى حدود الاختصار، مؤكدين فى معظمها على منزلة المرأة التى يحاولون:

أولاً - النيل منها، وفى مقدمتها ضرب الشريعة: «فالنزعة الصليبية هى التى أوحت بإيقاع التشريع الوضعى، وإحباط كل محاولة لإحياء التشريعات السماوية التى نص القرآن الكريم على ضرورة تطبيقها..»[2].

ثانياً - باسم تحرير المرأة من ظلم الرجل وإشراكها فى الحياة العامة ترتب قيام نهضات نسائية ابتعدت عن مسارها الطبيعى..

---

(١) هموم داعية: ص ٩٠.

(٢) من هنا نعلم: ص ١٨.

«فالفساد الذى عرا هذه النهضات ليس إلا وليد رغبة فى الإثم، وحب للشهوات، دفع بعض الرجال إلى تعرية المرأة فى الأحفال الساهرة، أو على الشواطئ البعيدة لتيسير الحرام وإجابة غرائز السوء.. !!»[1].

هذا إلى جانب فتح العديد من النوادى التى تصب فى هذا المعين المشبوه.. كذلك حفلات عروض الأزياء التى هى فى واقعها لا تمثل إلا جانبا من هذه النشاطات، وعن هذه التقاليد يقول:

«إننى أحد الذين حاربوا تقاليد الغرب الجنسية وجاهليته الذميمة فى إشباع الغرائز من الحرام.. وقد وقفت فى وجه الذين يحاولون نقل هذه التقاليد إلى بلادنا وقفة جرّت علىّ المتاعب.. وإنى لراضٍ كل الرضا عما أصابنى فى هذا الميدان.. لأنه فى سبيل الله..»[2].

ثالثاً - تشجيع الأقلام المعادية للإسلام:

«دأب الغرب على إهداء الثناء المستطاب للكتّاب الملاحدة، وتشجيعهم مادياً وأدبياً على ضرب الإسلام وإهانة شريعته»[3].

وعلى سبيل الأمثلة يذكر الأستاذ الإمام أن جائزة القلم - وهى أكبر الجوائز في السويد بعد جائزة نوبل - منحت للكاتبة المرتدة تسليمة نسرين سنة ١٩٩٤م، ومن قبلها نالها سلمان رشدى سنة ١٩٩٢م.

وتقول جريدة الراية المغربية: «إن هناك أكثر من كاتب مصرى وعربى يرشح لنيل هذه الجائزة!...»[4].

(١) الإسلام والطاقات المعطلة: ١٣٤.
(٢) هموم داعية: ص ١٤٧.
(٣)، (٤) الحق المر: ١٩٧/٤.

كما أنهم نشطوا لإفسادها من خلال مجلات خاصة بالمرأة تشرف عليها صحافة موتورة.

رابعاً ـ عقد مؤتمرات..

وهذه المؤتمرات التى تعقد ظاهرياً باسم الدفاع عن حقوق المرأة ومساواتها بالرجل.. باطنها اغتيال شريعتنا، وذلك بربط نسائنا إلى عجلة المرأة الغربية وتقليدها فى المباذل والانهيار الخلقى.. يقول الأستاذ الغزالى:

«إنه لم ينعقد للثناء على الإسلام، أو التنويه بالوحى الإلهى على الإجمال.. إنه يرفع راية المساواة بين الجنسين لا فى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، بل فى تحقيق الرغبات وتدليل الغرائز! ألا فليعلم المسلمون أن دينهم إيمان وتقوى، وأنه عدو لدود للفوضى الحيوانية التى يرفع الغرب رايتها ويرغب فى أن تعلو مسيرتنا»(١).

ولئن تصدى الداعية الغزالى لمثل هذه المؤتمرات بقوة إلى جانب إخوانه من علماء الأزهر وغير الأزهر، فقد شجبت الدول الإسلامية ـ ومنها مصر ـ بعض بنودها مما يتنافى ومنهج الإسلام!.

خامساً ـ تحديد النسل..

فى الوقت الذى يموج فيه الغرب بأطفال ولدوا سفاحاً، وأقطار تعمل على رصد الجوائز لزيادة سكانها من أوروبا، يزجى إلينا

---

(١) الحق المر: ٤/ ١٨٢.

خطة معاكسة يذلّـل فيها الصعب.. وتنشط لها عن طريق أدوية وحبوب منع الحمل واستشارات طبية تقدم للنساء مجاناً!!.

«أجل إن تقليل النسل بيننا سياسة مرسومة بمهارة وحقد»..

فإن المستعمرين هالهم أن هذه الأمة تتكاثر مغالبة عوامل الفناء المسلطة عليها!..

وهذه الكثرة مع بواكير اليقظة السارية فى أوصالها مصدر خطر على هذا الاستعمار الصليبى ؛ ولذلك أوعز إلى وسائل الإعلام الخاضعة لهم أن تحارب هذه النزعة بين المسلمين وحدهم»[1].

إن منزلة المرأة فى منهج الغزالى أنبل وأرقى من أن تلوث بمدنية بعيدة فى سلوكها عن القيم الدينية.

لا إفراط.. ولا تفريط!:

من خلال ما سبق يخلص إمامنا الجليل إلى:

«لا تقاليد الشرق المجحفة تعجبنى، ولا تقاليد الغرب المسرفة تسرنى. الغرب غلبته حيوانية أزرت بالرقى الثقافى للمرأة. والشرق غلبته نزعات أنانية كادت تودى بإنسانية المرأة»[2].

إن الإسلام فقط مَنْ حمى المرأة وأحلها المكانة الجديرة بها:

«إن الإسلام وحده هو الذى صان شخصية المرأة، وردّ عنها كل

(1) من هنا نعلم: ص ١٩٤.
(2) دستور الوحدة الثقافية: ص ١٧٥.

عدوان عليها وفق قاعدته: ﴿ لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾. [آل عمران: ١٩٥].

والذى يحز فى نفسى أن جمهوراً من المتدينين الجهلة فى بلادنا تبنَّى مفاهيم الجاهليات اليونانية والرومانية وغيرها، وقرر أن يحيا فى نطاقها، وزاد إلى هذه السفاهة أن قرر الدعوة إليها بحسبانها مفاهيم إسلامية!.

كيف نحمى الإسلام من أصدقائه الجهلة ؟ فَهُمْ أضرَى عليه من أعدائه الساخرين. . !!»(١).

❁❁❁

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ٦٥.

الفصل الثالث:

حجـــاب المــرأة

«أما ملابس النساء فمن الواجب ابتكار أزياء تجمع بين الفضيلة والجمال، وتمنع التبرج والفساد!!».

الشيخ محمد الغزالى

فى حجاب المرأة..

الأستاذ الإمام محمد الغزالى أحد المفكرين الذين عرفوا بدفاعهم عن حقوق المرأة، وحاولوا إعادة حقها المسلوب! بيد أنه تميز عنهم بكونه أجرأ من دافع عن حقوقها الإسلامية، وأشدهم تعاطفاً أمام قهرها وانكسارها الاجتماعى، واستمراراً لمتابعة قضيتها وحتى آخر يوم من حياته. لقد نظر إليها على أنها قضية دينية لا قضية رجل أو امرأة!.

ومن هنا رصد الكثير من وقته وجهده لرفع شأنها وإزالة الحيف عنها عبر ميزان الاعتدال. ولقد مثل «حجابها» أحد معاركه التى خاضها كأحد الفرسان النبلاء الذين لا يهابون الكثرة ما دامت شاذة عن الحق، مهما علا صوتها وتعددت أسلحة نزالها؛ لأنه يدرك أن أية معركة يخوضها إنما يقاتل دفاعاً عن الحق وبأسلحة الحق التى لا تُقهر أو تهان.

الحق.. أن معارك الإمام الغزالى كثيرة وشهيرة، بدأت أولاها ضد العنت والقهر الاجتماعى والاستبداد الاقتصادى؛ ليخرج منها ظافراً مع أول مؤلفاته النفيسة «**الإسلام والأوضاع الاقتصادية**» تلاها بكتابين حول هذه القضية تصحيحاً لأوضاع اقتصادية فاسدة عاشتها مصر إبان عهد الإقطاع، حتى كانت آخر معاركه الفكرية حول مؤلفه الأكثر شهرة «**السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث**» الذى أثار ضجة واسعة امتدت ذوائبها فى منتديات العلم، والصحف

وعلى أعواد المنابر، وكل الوسائل الإعلامية الإسلامية فى طول الأقطار وعرضها.

وإن لم تكن هذه المعركة هى الأخيرة!.. فقد تبعتها معارك أخرى عن غير طريق مؤلفاته.

لقد كان رصيد الأستاذ الغزالى من الهجوم كبيراً..

ودائماً أصحاب الأهداف النبيلة والغايات المثلى نصيبهم من الحاسدين الجهلة والمنافسين الموتورين على نفس القدر!.

وكم من أصابع تحركت فى الخفاء والجهر لإقصاء وتكميم فيه وكسر قلمه وتحطيم همته، لكنه داس على كل هذه الأشواك الملقاة فى طريقه بهمة عالية وروح صبور.

وعلى امتداد تاريخنا الإسلامى نقف على شخصيات شامخة حوربت وظلمت وعرفت ظلمة السجن لارتفاع صوتها بالحق، حتى لنسمعه يصرح بألم عن مصلحين من عصرنا وقف معهم فى خندق واحد:

«وقد سمعت من يشتم جمال الدين ومحمد عبده ورشيد رضا، بل سمعت أطفالاً ينالون من أقدار الأئمة الأعلام، لا لشىء إلا لأنهم أتوا بما لم يعهدوه عن آبائهم الذين لا يقلون عنهم جهلاً..

لقد أدهشنى أن نفراً من المتدينين يتناولوننى بأقسى مما يتناولنى به الصهاينة والصليبيون! وفهمت ما قاله الأستاذ عصام العطار: لو

بذل أدعياء الإسلام فى محاربة أعداء الله والمبطلين عُشْر ما يبذلون فى حرب أولياء الله الصادقين لانتصر الإسلام من زمن بعيد..»(١).

وحول حجاب المرأة أراد الشيخ الغزالى أن يقدم صورة صادقة عن الإسلام أمام أهله، والمتربصين به!.

وبعيداً عن الأقيسة التى تنساب من البشر وبحسب أهوائهم وقد اتخذوا من الحجاب ذريعة لإلصاق فتاوى مكذوبة وأحاديث موضوعة، الغاية منها حرمان المرأة من ممارسة دورها الفاعل ضمن مجتمعها وسجنها كى تتحرك فى أضيق الحدود، كما لو كانت مجرمة خطرة تعاقب بمبنى خاص أو سجن انفرادى، إنهم بهذا - إلى جانب تقديم صورة مشوهة عن المسلمة فى الغرب تنفرهم من الإسلام! - يمنحون الغرب فرصة ذهبية لضرب الإسلام.

لا شك أن المرأة كالزهرة.. فكما تحيا وتنمو عند تعرضها لقدر معقول من هواء نقى وضياء، فإنها تذبل وتموت فى الأجنحة المظلمة!.

معركة النقاب!..

وفى نفيه فتاوى تحريم كشف الوجه، يقول الأستاذ الإمام:

«ولنبدأ بمعركة النقاب..

قرأت كُتيباً فى إحدى دول الخليج يقول فيه مؤلفه: إن الإسلام حرم الزنا! وإن كشف الوجه ذريعة إليه، فهو حرام لما ينشأ عنه من عصيان!.

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٩.

قلت: إن الإسلام أوجب كشف الوجه فى الحج، وألفه فى الصلوات كلها، أفكان بهذا الكشف فى ركنين من أركانه يثير الغرائز ويمهد للجريمة؟ ما أضل هذا الاستدلال!.

وقد رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الوجوه سافرة فى المواسم والمساجد والأسواق، فما روى عنه قط أنه أمر بتغطيتها، فهل أنتم أغير على الدين والشرف من الله ورسوله؟»[1].

دليل كشفه من خلال القرآن:

الأستاذ الغزالى فى قضايا الدين لا يسوق كلاماً عاطفياً لترجيح رأيه، إنما يغوص فى بحار القرآن يستخرج من لآلئه أدلة لا ينكرها ذو بصر وبصيرة:

«إذا كانت الوجوه مغطاة فممَّ يغض المؤمنون أبصارهم؟ كما جاء فى الآية الشريفة: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ** ..﴾[2] أيغضونها عن القفا والظهر؟

الغض يكون عند مطالعة الوجوه بداهة، وربما رأى الرجل مايستحسنه من المرأة فعليه ألاّ يعاود النظر كما جاء فى الحديث، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلىٍّ ـ رضى الله عنه ـ:

---

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص ٤٤، ٤٥.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٠.

«يا علىُّ لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة»![1].

ولمن شاء الاستزادة من هذا الرأى فسيجد أكثر من دليل يقدمه من خلال القرآن والسنة المطهرة ومواقف من سير الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ سيما مؤلفه الآنف الذكر ما بين الصفحات ٤٤ ـ ٥١ ط دار الشروق.

ومن خلال السنّة:

روى الشافعى عن أبى يوسف قال: «أدركنا مشايخنا من أهل العلم يكرهون فى الفتيا أن يقولوا: هذا حلال وهذا حرام، إلا ماكان فى كتاب الله بيّناً بلا تفسير».

«ومن ثم فالجرأة على رمى الناس بالمعصية لأمور تختلف فيها الأنظار شيمة من لا قدم لهم فى الفقه..»[2].

وفى هذا السياق الفقهى يقول:

«وعن سليمان بن يسار أن ابن عباس أخبره أن امرأة من خثعم استفتت رسول الله فى حجة الوداع والفضل بن العباس رديف رسول الله. ثم ذكر الحديث، وفيه: «فأخذ الفضل يلتفت إليها وكانت امرأة حسناء، وأخذ رسول الله يحوّل وجه الفضل إلى الشق الآخر».

---

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص ٤٤، ٤٥، والحديث أخرجه الترمذى برقم ٢٧٧٧ وأبو داود برقم ٢١٤٩ عن بريدة. والإمام أحمد ٥/٣٥٣، ٣٥٧

(٢) من هنا نعلم: ص ١٥٣.

فلو كان الوجه عورة يلزم سترها لما أقرها ـ عليه السلام ـ على كشفه بحضرة الناس، ولأمرها أن تسبل عليه من فوق.

ولو كان وجهها مغطى ما عرف ابن عباس أحسناء هى أم شوهاء فصح ما قلنا والحمد لله كثيراً».

يقول الشيخ الغزالى:

هذا كلام ابن حزم وهو رأى الأحناف والمالكية وغيرهم»[1].

وروى أحمد بن حنبل عن عائشة أن وفد الحبشة كانوا يلعبون عند رسول الله فى يوم عيد، قالت:

«فاطلعت من فوق عاتقه فطأطأ لى منكبيه، فجعلت أنظر إليهم من فوق عاتقه حتى شبعت ثم انصرفت».

وبهذا الحديث وأمثاله مما حفلت به كتب السنة احتج من رأى جواز نظر النساء إلى ما ليس عورة من الرجال ـ مع الغض والأدب[2].

وينتهى الغزالى من مشروعية كشفه بقوله:

«وخروج النساء للمسجد أو المدرسة، أو لأى غرض مشروع ما دام فى أزياء العفة السابغة الوافرة ليس موضع خلاف بين الفقهاء المعتبرين.

---

(١) و (٢) من هنا نعلم: ص ١٥٤.

ولا يوجد نص صريح فى تغطية الوجه، بل المروى يفيد الكشف كما ذكرنا، وقد توسع بعض الفقهاء فأفتى بستره منعاً للفتنة»[1].

فى فتاوى التحريم!

ظهرت فتاوى تحريم الحلال واشرأبت بأعناقها لتقييد المرأة ضمن عصور أُبعدت فيها عن الميادين الاجتماعية عندما اختلط المسلمون بسكان البلاد المفتوحة، وما أعقب ذلك من تزاوج فى عوائد وأوهام تلك البلدان لا دخل للدين والعقل فيها.. بل خضعت لأهواء نفوس طوت بعض أحكام الدين:

«وصدرت فتاوى مكذوبة بأن وجه المرأة عورة ـ ولو من غير فتنة ـ وصوتها عورة، وأخذت الفتوى حكم الأمر اللازم، وليس الرأى الاحتمالى»[2].

ووقف الإمام الغزالى ـ وهو الفقيه الذى يمحص المسألة ويغربلها ويردها إلى أصولها من القرآن الكريم والسنة المشرفة» مهما علا صوت الغلاة وملأ شعاب الآفاق بفتاوى التحريم ـ قائلاً:

«ونحن هنا نذود المرويات الواهية، والأحاديث المعلولة، كما نذود عن القرآن نفسه التفاسير المنحرفة والأفهام المختلفة؛ ليبقى الوحى الإلهى نقياً.

(١) من هنا نعلم: ص ١٥٩.
(٢) سر تأخر العرب والمسلمين: ص ٢٢.

إن ركاماً من الأحاديث الضعيفة ملأت آفاق الثقافة الإسلامية بالغيوم، وركاماً مثله من الأحاديث التى صحت، وَسَطَا التحريف على معناها أو لابسها، كل ذلك جعلها تنبو عن دلالات القرآن القريبة والبعيدة»(١).

كلام مردود فى فتاوى وأحاديث:

«فقد نقل عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن لحاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة.

وهذا كلام مردود من ناحيتى السند والمتن كليهما، وابن عباس لا يجهل ما وقع لأخيه الفضل فى حجة الوداع عندما ثبت بصره على وجه امرأة حسناء، فأدار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأسه، ولم يقل للمرأة غطى وجهك، أو أخفى عيناً وأظهرى أخرى، والحديث فى الصحاح، وهو أحد عشرة أحاديث صحيحة تفيد سفور الوجه دون اعتراض من أحد»(٢).

«وفى حديث المرأة التى أفهمها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أكثر ما يدخل النساء النار كفران العشير؛ قال الراوى فى صفتها: إنها «سفعاء الخدين» أى: حمراء الوجه مشوبة بسمرة.

---

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص ١٤٣.

(٢) علل وأدوية: ص ١٣٣، وقد ذكرها الشيخ ناصر الدين الألبانى كلها تقريباً فى كتابه (الحجاب). كما يقول المؤلف (الغزالى) فى «علل وأدوية».

فهل عرف ذلك وهى تخفى عيناً وتبدى أخرى؟ أم كانت المرأة سافرة دون اعتراض؟.»(١).

ونحن نفهم أن راوى الحديث لا يمكن أن يلوى عنق الفقيه.. فكلاهما متمم للآخر..

وفى نفيه الرواية وردها إلى أصولها يقول:

«وذهب النووى ـ وهو من فقهاء الشافعية المتشددين ـ إلى أنه لايجوز أن يرى رجل امرأة ما، ولا أن ترى امرأة رجلاً ما، وأوّل حديث عائشة بأنها كانت صغيرة السن لم تبلغ بعد، ولكن الحافظ ابن حجر تعقب النووى، فذكر أن قدوم وفد الحبشة كان سنة ٧ للهجرة بعد بناء الرسول بها بأمد طويل. فكيف يقال إنها صغيرة السن مع أن عمرها نحو ستة عشر عاماً؟!»(٢).

لماذا الحجاب؟

لا يذهب الأستاذ الغزالى فى شرح أسباب فرض الحجاب، إذ هى كثيرة ومعروفة عند معظم الناس، لكنه يتناول مسألة دقيقة منها إن لم تكن أدقها:

«إن الحجاب الذى ورد فى الإسلام هو تنظيم للتردد على البيت النبوى بعد ما لوحظ أن البعض يجلس ـ دون سبب ـ وبعدما

---

(١) المرجع السابق: ص١٣٤ ط دار القلم، دمشق، طبعة ثانية (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).
(٢) من هنا نعلم: ص ١٥٤.

لوحظ أن أحد أجلاف البدو قال فى صفاقة غريبة: لو مات محمد تزوجتُ فلانة من نسائه»(1).

لا أخرج عن الإجماع:

«ويعلم الله أنى - مع اعتدادى برأيى - أكره الخلاف والشذوذ وأحب السير مع الجماعة، وأنزل عن وجهة نظرى التى أقتنع بها بغية الإبقاء على وحدة الأمة..

فهل ما قلته رأى انفردت به ؟.. كلاّ كلاّ، إنه رأى الفقهاء الأربعة الكبار.. ورأى أئمة التفسير البارزين..

إن الشاغبين على سفور الوجه يظاهرون رأياً مرجوحاً ويتصرفون فى قضايا المرأة كلها على نحو يهزّ الكيان الروحى والثقافى والاجتماعى لأمة أكلها الجهل والاعوجاج لما حكمت على المرأة بالموت الأدبى والعلمى.

إن من علماء المذاهب الأربعة من يرى أن وجه المرأة ليس بعورة، وأثبت هنا نقولاً عن كبار المفسرين من أتباع هذه المذاهب:

قال أبو بكر الجصاص - وهو حنفى - فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا... ﴾ [النور، آية: ٣١].

قال أصحابنا: المراد الوجه والكفان؛ لأن الكحل زينة الوجه،

(1) دستور الوحدة الثقافية: ص ١٧٦.

والخضاب والخاتم زينة الكف. فإذا أُبيح النظر إلى زينة الوجه والكف فقد اقتضى ذلك ـ لا محالة ـ إباحة النظر إلى الوجه والكفين»[1].

وقد ساق الأستاذ الإمام الغزالى الدلائل والحجج لكل مذهب. وقد قدمت واحداً منها على مذهب أبى حنيفة النعمان، ولمن شاء الاطلاع متابعة ذلك[2].

وفتاوى معاصرة!

يلاحظ أن معركة النقاب معركة شديدة الاحتدام والامتداد وصل معها مغالاة البعض فى آرائهم الخاصة بالتحريم إلى حد ردهم لأقوال الأئمة الثقات:

«وقد دهشت لأن عالماً من شنقيط ـ وهو قطر مالكى المذهب ـ وقف فى المسجد النبوى يقول أثناء درس له: إن مالك بن أنس يقول: إن وجه المرأة ليس بعورة. وأنا أخالف مالك بن أنس!!. قلت: ليس مالك وحده الذى يقول ذلك.. بل سائر الأئمة الأربعة إلا رواية واهية عن أحمد بن حنبل تخالف المقرر من مذهبه كما حكى ذلك ابن قدامة الحنبلى»[3].

بل وصل بالبعض فى تجاهله أو جهله بسيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص ٤٩.
(٢) انظر السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص ٤٩.
(٣) هموم داعية: ص ١٤٩.

«وإذا مدَّعٍ للغيرة يقول: المرأة لا ترى أحداً ولا يراها أحد.

كأن عصر النبوة كان يقبل المنكر عندما رصّ النساء صفوفاً فى المسجد، وعندما قبلهن عوناً فى بعض المعارك»[(١)].

فى تحريم كشف اليد!

وليت بعضهم وقف عند حدود إلزام المرأة لبس النقاب، بل ورأى إلزامها القفاز أيضاً. أما الرجل فليغطِّ رأسه بقلنسوة أو عمامة ليغدو المجتمع إسلامياً!!. وفى هؤلاء يقول الأستاذ الغزالى:

«حتى قرأت لعالم كبير فتوى بأن ستر اليد داخل قفاز من تمام الحجاب، وبذلك زاد قيد آخر على حراك المرأة وعلى دائرة المباح الذى كفله الشارع لها.

وراجعت معلوماتى من كتاب الله وسنة رسوله، فوجدت الكلام رأياً خاصاً لصاحبه لا يجوز أن يسمى ديناً أو شبه دين».

ويضيق الأستاذ الإمام كثيراً بمثل هذا الفكر الجامد الذى يسىء إلى روح الإسلام:

«وددت لو أُعنت على محاكاة أبى حامد الغزالى مؤلف «إلجام العوام عن علم الكلام» فألفت كتاباً عنوانه «إلجام الرعاع والأغمار عن دقائق الفقه ومشكل الآثار» لأمنع الصغار من مناوشة الكبار، وأشغلهم بما يصلحون له من أعمال تناسب مستوياتهم، وتنفع أممهم بهم»[(٢)].

---

(١) سر تأخر العرب والمسلمين: ص ٣١.

(٢) علل وأدوية: ص ٩٤.

دليل النفى:

«كانت المرأة تلقى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى أصابعها خاتمها، فما ينكر ذلك عليها، وإنما يتساءل فقط: **هل أخرجت عليه من زكاة؟**[1].

فما معنى زيادة القيود المفتعلة على المرأة وإيهام المؤمنات بأن اليد عورة يجب سترها؟

«روى أبو داود وغيره عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن امرأة أتت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعها ابنتها، وفى يد ابنتها أسورتان غليظتان من الذهب، فقال لها: **أتعطين زكاة هذا؟** قالت: لا! قال: **أيسرك أن يسورك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار؟.**

فخلعتهما فألقتهما إلى النبى وقالت: هما لله ورسوله»[2].

ومع غزارة الأحاديث التى تثبت مشروعية رؤية اليدين نضيف هذا الحديث أيضاً:

حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بسنده عن ابن عباس يذكر: «أنه شهد العيد مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنه ـ عليه السلام ـ خطب بعد أن صلى، ثم أتى النساء فوعظهن

---

(١) هذا حديث ذكر بالمعنى دون النص انظر سنن أبى داود بأرقام ١٥٦٣، ١٥٦٤، ١٥٦٥.

(٢) الحق المر: ٥/ ٤٠. والحديث أخرجه أبو داود برقم ١٥٦٣ عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.

وذكّرهن وأمرهن أن يتصدقن، فرأيتهن يهوين بأيديهن يقذفنه فى ثوب بلال» ـ أى: المال.

«فهذا ابن عباس بحضرة رسول الله رأى أيديهن، فصح أن اليد من المرأة والوجه ليسا عورة، وما عداهما فرض عليهما ستره»(١).

«ولو كلفنا النساء المسلمات بلبس القفازين لعجز أكثر من نصفهن عن ذلك، ووجدن فى لبسهما العنت»(٢).

الحجاب المقاوم.. داخل أرضه!

وشيخنا الغزالى كما يضيق بالغلو والجنوح والتنطع فى قضايا الدين.. كذلك يغضبه أن تنتهك حرمات الله ـ عز وجل ـ خدمة لمآرب العالم الصليبى وسفهه باسم التطور والديموقراطية وحرية الفكر:

«هل محاربة الإسلام ذاته ـ تحت عنوان محاربة التطرف ـ لون من الديمقراطية؟.. هناك سلطات فى العالم العربى والإسلامى تكره كل الكره ما أنزل الله، وتثور ثائرتها إذا رأت فتاة مستورة الرأس والأذرع وترفض بغضب كل صيحة لإلغاء الأحكام التى جلبها الاستعمار العالمى عندما طوانا تحت رايته..

إنها امتداد للإذلال القديم وللغارة الصليبية على العالم الإسلامى»(٣).

(١) من هنا نعلم: ص ١٥٤.
(٢) الحق المر: ٥/ ٤١.
(٣) الحق المر: ١/ ١٣٠.

لقد آلم عالمنا الغزالى أن تُهاجَم ملابس الفضيلة التى أحلَّتِ المرأة محلاً رفيعاً، حجبت فيه عنها النظرة الوقحة التى يسددها إليها ضعاف النفوس.

وعندما ازدادت حدة الصراعات الغربية عن طريق تجار الرقيق فى دور الأزياء وفاترينات العرض التى تسابق النساء إليها يعرضن مفاتنهن التى تقودهن إلى مزالق الانحراف، كان للشيخ الغزالى وقفات أسعدت طلاب الفضيلة وأزعجت طلاب الرذيلة!.

ففى بداية الستينات وخلال مؤتمر شعبى طالب بلباس محتشم يستر المرأة بعيداً عن الصراعات الأوربية التى تخدش تعاليم الدين؛ يقول الأستاذ المصلح:

«هذا ما قلته، وما فوجئت بأنه أقام الدنيا وأقعدها»(١).

وسارع المفتونون بالغرب والمأجورون من الصحفيين بسن أقلامهم الجريئة حرابا يهاجمونه بها؛ واستمرت هذه المعارك سجالاً فى صفوف الشباب لصرفه عن دينه، ولا نستغرب أن تنتصر ملابس الفضيلة لأنها قائمة على الحق، بل الغرابة أن تشترك بعض النساء لمهاجمة الطهر.

«فلما تغلبت الفطرة الأصيلة وأخذ الشباب يعود إلى دينه فى صمت وظهرت ملابس الحشمة بين الطالبات الجامعيات جن جنون السماسرة من صحافيين وصحافيات وانطلقوا يفترون الكذب على

(١) معركة المصحف فى العالم الإسلامى: ص ٢٦٤.

العفيفات المحصنات. . ووصفت امرأة ماجنة ملابس الفضيلة بأنها «أكفان موتى» وأخذت مع غيرها تنهش بضراوة أعراض الطيبات الطاهرات.

وقد تصفحت هذه المجلة التى نشرت هذا اللغو فوجدت بها دعوة إلى الزنا والرضا به، والتحريض عليه، فى عدة مواضع. . !!»(١).

ومن صدر يموج بالغيرة على دينه، يتساءل بحرقة:

«وقد استغربت وضع العوائق أمام الطالبات اللاتى يرغبن فى الحجاب، فهل وُضِعَ عائق أمام راقصة تتلوى أمام الجمهور كالحيّة الرقطاء تستفز الغرائز الهاجعة وتثير الرغبات الحرام؟!»(٢).

ويرى الشيخ الغزالى أن لا نهضة نسائية رائدة تنطلق لتدفع بالمرأة إلى مراكز القيادة والأخذ بزمام الحضارة ما لم تعانق أهدافها العفة والفضيلة:

«ونحن نلفت رواد النهضة النسائية إلى ما فى التراث الإسلامى من نفاسة تعجب، وما فيه كذلك من أسانيد لقضاياهم النزيهة إذا أرادوا أن يربطوا حركتهم بالإيمان والمعرفة ويبتعدوا عن مزالق الهوى والتحلل»(٣).

---

(١) قذائف الحق: ص١٢٩ منشورات دار ذات السلاسل/ طبعة ثالثة (١٩٧٧م القاهرة).

(٢) الحق المر: ١١٧/٥ دار نهضة مصر (١٩٩٦م القاهرة).

(٣) الإسلام والطاقات المعطلة: ص ١٤٨.

المدخِّنة.. أفضل من المحجَّبة!

ومن فصول مقاومة الحجاب داخل أرضه، وأرضه تمتد فى أقطار إسلامية كثيرة لا تختلف فى معظمها عن بعض إلاّ اللمم.

ومع صورة واقعية من صور لا حصر لها فى بلادنا:

«وما كدت أجلس إلى مكتبى وأفتح الكتب المرسلة إلىَّ حتى استوقفتنى رسالة موقعة من نحو ستين فتاة بين طالبة وعاملة يستنجدن بى مما نزل بهن.. الرسالة من قطر عربى «مسلم»[1] صدر به منشور إدارى تطلب فيه الحكومة التخلى عن «ملابس الحجاب» وإلزام كل طالبة فى المعاهد والجامعات، وكل عاملة فى القطاعين العام والخاص بتعرية الرأس والسيقان وكشف ما تيسر من الأذرع، أى: نبذ الحجاب الشرعى والظهور فى الملابس الغربية الشائعة فى العصر الحديث..»[2].

«وتم طرد طبيبات وممرضات من بعض المستشفيات لإصرارهن على التزام الحجاب.

وقال مدير أحد المعاهد العلمية: إن الطالبة التى تدخن أفضل عندى ممن تلبس الحجاب!!»[3].

---

(١) الحق المر: ١/ ١٣٢ والقطر المذكور هو تونس - والمستشفى الذى طرد منه الموظفات المحجبات هو مستشفى «المنستير» (المؤلفة).

(٢) و (٣) الحق المر: ١/ ١٣٢، ١٣٣.

«والذين أصدروا هذا القرار يطبقونه بصرامة على المسلمات وحدهن بداهة، أما الراهبات المسيحيات فلا يجرؤ أحد على اعتراضهن، وإن كان زيهن هو هذا الحجاب المطارد!!»(١).

وخارج أرضه!

يقول مثل: إذا المرء هان على نفسه فهو على الآخرين أهون..

إذا وجد الحجاب من أهله مقاومة شرسة.. فعند اقترابه من الغرباء تكون المقاومة أشرس، خاصة إذا حلَّ ببلاد لم تنطلق منها الحرب الصليبية ضد المسلمين وحسب! لكنها ترتبط بمصلحة الممولين فى تصدير الأزياء والصراعات التى تعود عليها بربح وافر.

وشيخنا الغزالى يقف من أعداء الحجاب موقفاً عدائياً لكونه هجوماً على الإسلام، تترجمه كلماته الثائرة:

«وقد انفجر الغضب على الإسلام وأتباعه يوم ارتدت ثلاث فتيات زياً إسلامياً محتشماً، وقال كثير من المسئولين: هذا تحد للحضارة الفرنسية!.

أنا شخصياً أتساءل: إن الشبه قريب جداً بين الحجاب الإسلامى وملابس الراهبات المسيحيات، فما الذى أثار الذعر والتوجس لأن تلميذات آثرن الاحتشام والتقوى، وارتدين ما يرد عنهن العيون الجريئة والخائنة؟

---

(١) الحق المر: ١/ ١٣٢، ١٣٣.

لا ريب أن هناك حساسية بالغة ضد كل ما يقترب من الإسلام أو يقرب من معالمه وشعائره..»[1].

ومع كل ذلك سُمح للطالبات بارتداء زيهن الخاص بدينهن ما عدا المسلمات. ويبدو أن فرنسا نسيت أنها يوماً أوقدت شعلة الحرية.

وما جرى في فرنسا، حدث في إنجلترا.

وقد قرأت فصل الختام في هذه المعركة كما نشرته جريدة الشرق الأوسط.. بتاريخ (٢١/ ١٠/ ١٩٩٦م): «بعد نحو عامين من الجدل خسمت محكمة فرنسية في منطقة «بيرفيل» قرار طرد سبع مسلمات لارتدائهن الحجاب، وأمرت المحكمة الحكومة بدفع غرامة لكل طالبة تعويضاً عما لحقهن من أذى»[2].

بين المتطرفين الفرنسيين.. والغلاة المسلمين!

كثيراً ما حاول الشيخ الغزالي إلقاء الحجر في المياه الراكدة لتتحرك، فتصل الرسالة إلى هدفها.

وليس هذا الأمر خاصًّا بالدعاة، بل لأي مسلم أن يحاول إيصال روح الإسلام ونبضه إلى قلوب وأفكار الجاهلين بحقائقه الوضيئة..

كما أكد الغزالي على أخذ غير المسلمين بالرفق، وبوسائل تحاكي عقولهم وتفتح الطريق لاحتضان مشاعرهم، خاصة وأن

---

(١) تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل: ص ١١٩.

(٢) صحيفة الشرق الأوسط في عددها (٦٥٣٧).

الغرب أقام حضارته على العقل والمادة؛ لذا يخشى أن ينحو غلاة المسلمين نحو ما فعله المتطرفون من الفرنسيين وسواهم، وذلك عندما يقومون ببناء مدارس خاصة بهم، ليتساءل ويده فوق قلبه وجلاً من انتكاس الصحوة الإسلامية:

«ترى هل سيلزمون الطالبات بالنقاب؟ إذا حدث ذلك فسيكون قضاء على الدعوة الإسلامية، ولن يقبل رجل أو امرأة الدخول فى هذا الدين!.

وإذا نحن التزمنا بهذا الحجاب أنصفنا ديننا، وأغرينا عشاق الفضيلة بالدخول فيه»(١).

فى صرعة التنفير من الحجاب!

ويرفض شيخنا الغزالى للمرأة أن تُتخذ غطاء أو أداة تنفير من هذا الدين يكون المنفذ الحقيقى لهذا الدور ـ من وراء الكواليس ـ الرجل المستغلق الفكر، حين يعرض الإسلام عرضاً رديئاً أمام أية سيدة جاهلة بالإسلام ؛ لذا فهو ينحو باللائمة على المتشددين ويحذرهم.. ويسوق نماذج عرضت فى أحد المؤتمرات النصرانية الإسلامية فى أستراليا توضح أبعاد الغلو وتأثيره السلبى، واستغلال هذه الدعاية الماكرة المغرضة لتنفير المرأة الغربية.

ويقدم الأستاذ الغزالى كلام صاحب الرواية الذى حضر هذا المؤتمر:

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ٧.

«نظرت فوجدت المرأة فى سمت عفريت داخل قاعة المؤتمر، كانت مغطاة من أعلاها إلى أدناها مستخفية الوجه واليدين، تطل على الحضور من وراء ثقبين فى نقاب الوجه عليهما غطاء من زجاج أو باغة. قلت: ما هذا؟ قالوا: سيدة نصرانية جاءت تحتج على ظلم المسلمين لترى النساء فى أستراليا ما يعده الإسلام لهن إذا انتشر فى هذه القارة الجديدة»[1].

الحق أن الحجاب الإسلامى جعل المرأة سفيرة تنقل الإسلام فى صورة الاحتشام المعقول إلى الغربيات.. لا مظهراً منفراً تستخدمه غير المسلمة سلاحاً لصدِّ بنات جنسها عن الإسلام.

❁❁❁

(١) هموم داعية: ص ١٤٨.

الفصـــل الــرابـــع:

صـوت المـــــرأة
بين
الحــق.. والباطــل

«وعندما جاءت المجادلة تشرح لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - قضيتها، وتراجعه فى الحكم، لم يقل لها: اسكتى، إن صوتك عورة..»

الشيخ محمد الغزالى

فى صوت المرأة!

ومع الرغبة بحبس المرأة فى بيتها لابد وأن يعقبها حبس اللسان، فلا يرتفع لها صوت تشكو ما تعانيه من ظلم.. ولو كان من وراء الجدران!!.

بل لقد بلغ ببعض من يملك كماً كبيراً من استغلال النفس يهون معه سماع ضجيج مظاهرة ترتفع من سكير فى هدأة الليل أو صخب ماجن، ولا يهون عليه سماع واعظة تذيب جمود فكره وتحيى ما ذوى من رقة قلبه!.. أو الإصغاء لمحاضرة علمية لسيدة متخصصة تصلح من شئون دنيانا.. أو حديث نبوى ترسله مؤمنة علّه يعيد توازن فكره..

وتلك صورة أخرى من صور الظلم الاجتماعى ما أنزل الله بها من سلطان، لكأن من يرضى ذلك يمارى فى سورة «المجادلة»!

فإذا خاطبت المرأة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مشكلتها فسمع الله ـ تبارك اسمه ـ شكواها وحرقة قلبها، من عليائه، فلم يدعها حتى أعاد لها حقها سبحانه، حتى قبل مغادرتها مجلس رسول الله.

ومن ينكر سماع الفاروق عمر ـ رغم ما يعــرف من شدته ـ فوقف مع هذه السيدة يحاورها ويحادثها متلطفاً بها حتى ملّ صاحبه حديثها؟!.

أفيليق بعد ذلك أن يحبس صوت المرأة حفنة من رجال لا حظ لهم من العلم.. ولو قليلاً !.

إن مكانة المرأة أجلّ من أن يحجر أحد على صوتها.. الصوت الذى طالما ارتفع بالحق.. فسمعه الصحابة والتابعون.. كما أن كتب التاريخ تحفل مزهوة بواعظات وراويات وفقيهات أخذ عنهن الصفوة من العلماء والأئمة.

كما نعلم يقيناً أن شطر الدين أُخذ عن الحميراء: الصديقة بنت الصديق، وبتوصيةٍ من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن السيدة عائشة كانت تحدث فتُسْمِع الصحابة الأجلاء.. ولم تكن تُحسن الكتابة!..

ومن خلال أزكى المصادر يدحض الأستاذ الغزالى فرية (صوت المرأة عورة).. وذلك:

من القرآن الكريم..

يقول أستاذنا الغزالى:

«إن الوعى بمعانى القرآن وأهدافه يعطى الإطار العام للرسالة الإسلامية، ويبين الأهم فالمهم من التعاليم الواردة، ويعين على تثبيت السنن فى مواضعها الصحيحة»[1].

ولكن بعض قصار النظر يتجاوزون القرآن والسنة ليتحلقوا حول حديث لا سند له من الصحة فيعضوا عليه بأسنانهم ونواجذهم، ثم يذيعونه، أمثال هؤلاء كثير، يقدم أستاذنا نموذجًا منهم:

(١) هموم داعية: ص ٢٨

«كان شاب قريباً منى يكاد يتميز من الغيظ ونحن نستمع إلى بحث تلقيه إحدى السيدات. قلت له: ما بك؟ هل فى الكلام خطأ؟ فرد على عجل: أتقر هذا؟! «إن صوت المرأة عورة».

فأجبت فى برود: هذا كذب لا أصل له فى دين الله.

اسمع حكم الإسلام من كتاب الله، يقول الله لأمهات المؤمنين إذا حدثتن أحداً:

﴿...فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾. [الأحزاب: ٣٢] فهل يصمتن فلا ينبسن ببنت شفة لأن الصوت عورة ؟ كلا ﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ أى: ليكن الكلام طبيعيًا ليست به نغمة مريبة ولا لحن مثير!

وعندما جاءت المجادلة تشرح لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - قضيتها، وتراجعه فى الحكم لم يقل لها: اسكتى إن صوتك عورة..

وعندما جاءت بنت شعيب - التى صارت زوجة لموسى فيما بعد - تقول له: ﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾(١) لم يقل لها موسى: كيف تتحدثين معى هكذا وصوت المرأة عورة؟..»(٢).

---

(١) سورة القصص، من الآية: ٢٥.

(٢) الحق المر: ١/١٢٨.

وصوتها.. من خلال السنّة الشريفة!

المحامى الحصيف يعرف كيف يستخرج أدلة دفاعه لإنجاح حق موكلته عبر مصادر تنبو عن الطعن.. وعليه نجد الإمام الغزالى يقف ليدلى بحججه الدامغة، واثقاً من كسب القضية:

«كلما رجعت إلى السيرة النبوية ازددت معرفة بما كان للمرأة من مكانة، وبما كفله لها الإسلام من حقوق، لقد كان لها شخصية مقدورة وأثر يحسب؛ يقول المحدثون: لما نزل قول الله لنبيه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[1] صعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصفا ونادى:

«يا بنى عبد المطلب: اشتروا أنفسكم من الله، يا صفية عمة رسول الله، ويا فاطمة بنت رسول الله: اشتريا أنفسكما من الله فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئاً، سلانى من مالى ما شئتما..»[2]

إن نداء المرأة بهذا الصوت الجهير شيء مستنكر فى عصرنا الأخير، كأننا نعد اسمها كشخصها عورة لا يجوز أن يعرف!.. ونقول: ما للمرأة وهذه الشئون؟ يكفى أن يحضر رجل من أسرتها ليبلغها، أما أن تنادى على رءوس الأشهاد فذلك عيب!»[3].

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ٤/ ٢٢٤ ومسلم (كتاب الإيمان) برقم ٣٥١ والنسائى فى الوصايا، وأحمد ٢/ ٣٥٠.
(٣) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ٥٦، ١٦٥.

وفى موضع آخر يتناول الموضوع يغذيه بأدلة جديدة:

«وذكرنا أن أمراً إلهياً صدر بامتحان المؤمنات المهاجرات، وكان عمر يتولى ذلك الامتحان، فهل قال أحد: إن صوت المرأة حين تُسأل فتجيب عورة ؟. اللهم إلا أن يزعم متقعر أن الامتحان كان تحريرياً لا شفوياً!!..»[1].

ويرى الإمام الغزالى - يرحمه الله - أن صوت المرأة والرجل عورة إذا صاحبته نغمة نفهم منها الازورار عن الخلق الإسلامى:

«العورة فى أصوات النساء - وأصوات الرجال أيضاً - أن يكون الكلام مريباً مثيراً له رنين ردىء!!. ولا يوجد بين رجال الفقه من قال: صوت المرأة عورة، إنها إشاعة كاذبة».

مواريث.. لا تكاليف:

«العلماء الدعاة حين يعرضون الأمراض الاجتماعية المتوطنة يتعرضون لبلاء شديد، وكذلك الحال حين يتعرضون للغزو الثقافى، ويوقفون امتداده ثم يستأصلون جرثومته.

وسبب الضُّر مختلف هنا وهنا.. فالعلل المتوارثة لها سدنة أشداء يتعصبون لها ويقاتلون دونها، ويتعامون عن البديل الأفضل، وينطبق عليهم القرآن الكريم: ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤]. ..

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ٥٦، ١٦٥.

الواقع أن ضرر هذه التقاليد لا يمس العصر الذى استحدث فيه تقليد ما، أو حرّف فيه حديث، إن الخطر الأشد حينما تنسحب آثاره إلى الأجيال المتعاقبة لتمسى وكأنها من أصل الدين، وهى بعيدة عن جوهره شكلاً ومضموناً، وهذا ما واجه الدعاة فى حياتنا المعاصرة ليكون شيخنا الغزالى أحدهم:

«وعندما كنت أدرِّس فى جامعة الجزائر الإسلامية كان الطلاب عن يمينى فى المدرج والفتيات على يسارى، ولاحظت أن الوجوم يخيم على البنات. بعد أيام قلائل كن يسألننى على استحياء!! وعلمت أن الطلاب الذكور هددوهن إذا سألن! فإن صوت المرأة عورة!!

رددت على ذلك بمنع الأسئلة الشفوية من الجنسين، وقبول الأسئلة المكتوبة وحدها!! وأكدت ما قررته مراراً أنه لا عورة فى صوت المرأة ولا فى وجهها!..

ثم شعرت بأن مستقبل الإسلام فى مهب الرياح إذا بقى الفكر العفن يحتل آفاق الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية على النحو الذى ينشره بعض العلماء!!»(١).

«وأذكر أنى كنت ألقى محاضرة فى اليوم العالمى للمرأة، فلما قلت: إن وجه المرأة وصوتها ليسا بعورة.. حدثت ضدى مظاهرة صاخبة، وسمعت طالباً يقول لزميله: كنا نحسن الظن بهذا الرجل فإذا هو شر من قاسم أمين!»(٢).

* * *

(١) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل: ص ٥٢.

(٢) هموم داعية: ص ١٤٨.

الفصل الخامس:

في صروح العلم!

«إن حرمان المرأة من التعليم والتربية والعبادة الشخصية والاجتماعية والسياسية لايمكن أن يكون إرضاء لله ولرسوله».

الشيخ محمد الغزالى

المرأة المسلمة.. والعلم:

اهتم الإسلام بالعلم وكلف به شطرى الأمة: الذكر والأنثى، فالعبادات والأحكام الإسلامية نحن ملزمون بتعلمها. .

قال تعالى: ﴿ **اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾. [العلق، الآيات: ١ - ٥].

وعلى قدر العلم ترتفع منزلة صاحبه عند الله تعالى، ثم البشر! . .

﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [الزمر، آية: ٩].

كما أن الأحاديث النبوية أكدت على دور المرأة فى طلب العلم، يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

«**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**»(١). وفى الحديث الشريف أيضاً فى تشجيع أخذ العلم:

«**تناصحوا فى العلم فإن حياة أحدكم فى علمه أستر من حياته فى ماله، والله سائلكم يوم القيامة**»(٢).

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ١/ ١١٩، والطبرانى فى الصغير ١/ ١٦، وإتحاف السادة المتقين للزبيدى ١/ ٦٠، ٩٧، ٩٨، ١٢٩، ١٤٣.

(٢) الترغيب والترهيب للمنذرى ١/ ١٢٣ وأبو نعيم فى الحلية ٩/ ٢٠ والخطيب فى تاريخ بغداد ٣/ ٤٣.

لقد كان رسولنا الكريم يخصص أوقاتاً يعلم فيها المرأة فى مسجده، وطلب من الشفاء العدوية تعليم أم المؤمنين حفصة رقية النمل.

وامتدحت أم المؤمنين «عائشة» نساء الأنصار على وجه الخصوص لرغبتهن الشديدة وإقبالهن الملحوظ على التفقه فى الدين.

وللشيخ الغزالى كلمته:

«إن العلم فضيلة أطبق أهل الأرض على تكريمها.

وقد انفرد الإسلام بنصوص رائعة فى الحث على التعليم وتيسير سبله، وشاعت هذه التوجيهات فى الكتاب والسنّة شيوعاً يستحق الإعجاب»(١).

لقد شجع العلماء والفقهاء المرأة على أخذ العلم والعمل به ماوسعها سوى ما يتعارض والأخلاق وطبيعة تكوينها، ولقد برز الإمام الغزالى، كأشد مناصر للمرأة على فتح مجالات العلم الدينية والمدنية سواء، وبما يناسبها ؛ وإن ركز فى مجالات العلوم الأكاديمية على الطب والتعليم.

كان ـ رحمه الله ـ تكاد تقرأ السعادة فى عينيه لنجاحات المرأة، ولطالما تناول بالفخر والثناء نساء معاصرات تفوقن فى مجالات العلوم الدينية والأدبية والعلمية، سواء ما ورد منها فى مؤلفاته، أو من خلال الندوات والمقابلات الصحفية، وقدّمهنّ كنماذج يحتذى بهن.

---

(١) معركة المصحف فى العالم الإسلامى: ص ١٤١.

كان يرى فى دفاعه عن حقها المشروع فى أخذ العلم جزءاً من تحقيق الرسالة الإسلامية بربط المرأة بتعلُّم القرآن الكريم والسنة النبوية، وهما حصنان لصيانة نفسها من أى انزلاق قد يجلبه عليها جهلها أو.. تجهيلها!

لذا سن أسلحته وشهرها بوجه كل من يقف حجر عثرة فى طريق تعليمها، أو يحاول جرها إلى عصور التخلف والجمود ووأد توهجها الفكرى ؛ لأن هذا الحرمان سيشل أحد جناحى أمتنا، فاليد الواحدة محال أن تشيد حضارة، وبذا يكونون قد خدموا أعداءنا وحققوا لهم النصر من حيث يجهلون.

ويقدم الشيخ الغزالى الخلل الفكرى من خلال هذا الحوار:

«قال لى رجل ـ ممن يرون سجن المرأة ـ: نحن نعلمهن كل شىء ولا يخرجن من بيوتهن! فقلت له: إننا نعرق فى محاولات مضنية لرفع مستواكم الفكرى، ولا نكاد ننجح؛ فكيف نأمنكم على وظائف التربية والتعليم؟!

ثم هذا الذى تقوله.. أما كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه يعرفونه عندما فتحوا المسجد للمرأة.. وأذنوا لبعضهن بالمسير مع الجيش؟»(١).

وحول رد الأستاذ الإمام على سؤال بهذا الخصوص أجاب وحرارة دفاعه تسبق كلماته:

---

(١) هموم داعية: ص ٥٠، ٥١.

«ولا يجوز أن يوصد باب من أبواب المعرفة أمام النساء إلا أن يكون لأسباب فنية أو مواصفات خاصة، عندئذ ينطبق التخصيص على الرجال والنساء جميعاً، فيوجه كل أحد إلى ما يناسب قدرته وخبرته..»

«إن النساء فى عالم الكفر الشيوعى يَغْزُوْنَ الفضاء فلا يسوغ اجترار الإسلام لنمنع امرأة من علم تحسنه».

«وعندما يدعم الإسلام مكانة المرأة يحصنها من الصور الحيوانية التى أبرزتها الحضارة الحديثة، وجعلتها محوراً لإثارات متصلة تزلزل العفة وتهيج الغريزة»(١).

ومن ثنايا هذه الإجابة الثرية نقرأ مبدأ الشيخ الغزالى إضافة إلى أن تعليمها يخدم عبادتها، كذلك يتجاوز إلى الانصهار مع عالم متجدد يتطور باستمرار، ولم يشأ للمرأة المسلمة التخلف فى عصر غزت فيه الملحدة آفاق الفضاء وساحت أخرى فى آفاق الأرض تبشر بدينها!!.

بدء الغارة لتجهيلها!

لم يستقر الخط البيانى فى تعليم المرأة عند نسب معقولة.. فهو فى مد وجزر، لقد ازدان رأسها بتيجان المجد الدينى والأدبى إبان عصرها الذهبى على عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكانت

(١) مائة سؤال فى الإسلام: ٢/ ٢٧١ دار ثابت للنشر والتوزيع / القاهرة.

تتعلم كما يتعلم الرجل، ولكن هل تمتعت بهذه الأمجاد طويلاً؟..

يجيب أستاذنا الغزالى:

«إلا أن التقاليد العربية الجاهلة التى كانت تجتاح الأنوثة قديماً وتجاوز حقوقها المادية والأدبية عز عليها أن يطفر الإسلام بالمرأة هذه الطفرة، فعادت تسلب ما منح الدين، وتنكر ما أقرّ، وتعامل المرأة على أساس أنها متعة وحسب»[١].

«لقد ظل المسلمون ألف عام يمنعون تعليم المرأة، تنفيذاً لحديث مكذوب، يوصى بإلزامها الأمية، وإسكانها السراديب لا الغرف»!»[٢].

«الحق أن نصوصاً صحيحة أُهملت عمداً، أو حُرِّف معناها، وقدمت عليها أحاديث موضوعة تحض على جعل النساء أميات، أو أخبار واهية تفيد أن المرأة لا ترى أحداً، ولا يراها أحد، وهى آثار منكرة تخالف مخالفة جلية ما ثبت عن السلف الأولين بطريق التواتر أو الصحة، وقد أخذ المسلمون فى تجهيل النساء وإهمالهن حتى أصبحن فى العصور المتأخرة من سقط المتاع، وأصبحت الأنوثة رمز الهوان وتفاهة الشأن»[٣].

دور الاستعمار!

ولم تتنسم المرأة ثانية أولى أنسام العلم حتى دهمها الاستعمار الغربى.

(١) سر تأخر العرب والمسلمين: ص ٢١ ـ ٢٣.
(٢) مستقبل الإسلام خارج أرضه: ص ٦٥.
(٣) سر تأخر العرب والمسلمين: ص ٢١ - ٢٣.

«والغارة الاستعمارية على الأمة الإسلامية كان لها هدفان قاتلان: أحدهما استبقاء المرأة جاهلة لا تدرى شيئاً عن نفسها أو العالم، والآخر تعليقها - إذا تعلمت - بمحاقر الأمور وأنواع الزينة وأشكال المدنية الحديثة، والبعد عن اللباب والجد والارتقاء الفردى والجماعى»(١).

هذه الأهداف التى تناولها أستاذنا المربى (الغزالى) تفوقت على جهود العالم الجليل (رفاعة الطهطاوى) فى تعليم المرأة.. والذى عضده بكتابه الموسوم «المرشد الأمين للبنات والبنين» كى يتسلم الراية التعليمية من بعده رائدان كانت لهما جهود واضحة وعميقة، على عهد الاستعمار البريطانى، هما الأستاذ الإمام «محمد عبده» ورفيق كفاحه الأستاذ الكبير «قاسم أمين» الذى ما زالت تهمته قائمة فى عيون المتشددين لكونه سعى إلى تحرير المرأة!.

دور التغريب:

أفلح الاستعمار بفتح مدارس خرجت طلاباً خدموا الفكر الغربى، ولقد ساعد هذا الغزو الثقافى علماء الدين - من حيث لايشعرون - فقد ظلت المرأة فى جميع الأعصر التى أعقبت الخلافة الراشدة تحس بالظلم!.

وحينما فتح الأجانب المدارس كانت مناهج التغريب تظلمها أيضاً. لكنها أقبلت عليها وكأنها تثأر (بالشرود) لنفسها، لما أصابها فى عصور الظلمة التى أُقصيت فيها عن مناهل العلم:

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٣٣.

«ولقد كانت قبل الاستعمار أمية لا تقرأ ولا تكتب، وفرضت عليها هذه الأمية باسم الإسلام المفترى عليه! فلما اجتاحت بلادنا الحضارة المادية المعاصرة فتحت أبواب المدارس للمرأة، فلم تتعلم فيها حقائق التراث الغالى» ومناقب المرأة فى عصرها الأول.. كلا لقد غزا عقلها الفكر الأوربى، ونهجه الشارد، فإذا نحن أمام تقاليد لا تسرّ، ومناهج لا تنفع بل قد تضر!!

والسبب هو القصور العلمى الذى بلغ مرتبة الجهل المركب عند بعض الإسلاميين المتحدثين عن موقف الإسلام من المرأة والصائحين بأصوات منكرة: «المرأة لا ترى أحداً ولا يراها أحد، تخرج من بيتها إلى الزوج أو إلى القبر»[1].

جمودنا الفكرى أعان الغرب:

«والنجاح الذى صادف الحضارة الغازية يعود إلى ضعف المقاومة وإلى غباء المدافعين ! إننى عاصرت الأيام التى أدخل فيها طه حسين الفتيات فى الجامعة ؛ كان التيار الدينى يرى ذلك حراماً؛ إن تعليم البنات فى مدارس خاصة بدأ بعد الاحتلال البريطانى لمصر، فإن التقاليد السائدة كانت تفرض الأمية على النساء باسم الإسلام!!».

ولأهمية هذه القضية فقد تعرض لها أستاذنا الغزالى ثانية كاشفاً عن ضيق أفق بعض العلماء يومها، فيقول بحزن:

«.. كان موقف الإيمان - أو بتعبير أدق - موقف المؤمنين أن

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ٦١

ذلك لا يجوز، أما الطرف الآخر والذى سمى بالملاحدة فهو الذى ناصر تعليم المرأة إلى أعلى المستويات»[1].

ونكاد نسمعه يصرخ متألماً، وهو يتساءل:

«أى إنصاف للعلم فى هذه المعركة السخيفة ؟ الدين مع الجهل، والإلحاد مع العلم ؟ إلى متى نسمح لأناس يكذبون على الأرض والسماء باسم الدين؟»[2].

«والثغرة التى ينفذ منها أعداء الإسلام إلى بيضتنا ونحن نقاوم الغزو الثقافى هى موقف بعض الشيوخ من قضايا المرأة، فهم يقفون أحجاراً صلبة أمام كل الحقوق التى قررها لها الإسلام يريدون تعطيلها أو تشويهها».

دور المتشددين!

رأى الأستاذ الغزالى أن المرأة ظُلمت فى قضية التعليم فى كافة العهود المظلمة، وحتى حين أطل الاستعمار البغيض بوجهه الكالح، وفتح لها المدارس رأى أن يكون تعليمها غربى الأخلاق والفكر والمنزع. وما بين الانفتاح والتعصب كانت المرأة هى.. الضحية!.

ولقد حاول الغزالى الدفاع عن حقها الكامل فى التعليم بعيداً عن ثقافة الغرب بتحررها المنحرف.. وجهل المتشددين الذين يرون فيه قيمة إيمانية تحرسها وسياجًا يصونها، وذلك بضرورة العودة إلى الوجه المشرق فى تعليمها كما قررته العناية الإلهية.

(١) و (٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٩، ٢٠.

وما ينسحب على عموم الجو الاجتماعى الذى تعيشه المرأة.. ينسحب إلى التعليم أيضاً، ويرى شيخنا: «الأزمة الموجودة الآن فى الأمة الإسلامية أن البعض يريد تخييرها بين أمرين: إما حبس المرأة فى البيت، وإما إطلاقها فى الشارع، وهو تخيير بين أمرين أحلاهما مر!»(١).

إن مبدأ الشيخ وموقفه من تجهيل المرأة لا ينطلق قط من زاوية عربية ضيقة، وإن زخرت قرانا بالأمية رجالاً ونساء، ويستنكر أولياء الأمور فيها تعليم بناتهن!.. فشيخنا الغزالى يحمل هموم أمة.. ويأسى لأن أقطاراً إسلامية برمتها تمنع تعليم المرأة، وخاصة فى دول آسيا الوسطى وغيرها..

إن هذه الدول التى ظهر منها فقيهات وكاتبات ومقاتلات قدن جيوشاً، عادت إلى عصر الحرمان واقعاً تعيشه، فبدلاً من مكافأة المرأة الأفغانية على صبرها وتضحيتها بالزوج والأخ والولد والمال لإجلاء الطغيان الشيوعى البغيض عن أرضها كى تعود حرة نقية تجازى للأسف بالنقيض!.. فما أن دخلت قوات حركة طالبان العاصمة «كابول» حتى كان من أولى تصريحاتها إغلاق مدارس البنات فوراً مع عودة النساء العاملات وإمساكهن فى البيوت!!.

ولقد سبق وتخوف الإمام الغزالى بالتماعاته الفكرية، من مثل هذا التفكير المعوج والأعاصير التى اقتلعت الأشجار الباسقات بثمارها:

---

(١) علل وأدوية: ص ٩٢.

«وقد عاصرت أياماً أنكر فيها الأزهر تعليم المرأة فى الجامعة، كما علمت على وجه اليقين أن أفواجاً من الأعراب ذهبت إلى الرياض تستنكر فتح مدارس لتعليم البنات».

ولا يستثنى الشيخ الغزالى من علماء الأزهر من وقع فى هذا الخطأ، وعندما أفاق هؤلاء كان القطار قد مضى!.

حتى قال:

«والواقع أن جماهير من المتدينين كانت تستنكر تعليم امرأة فى أية مرحلة، وتعد تجهيلها من الإيمان.

ولو أنها غضبت لأن التعليم مختلط، وينبغى تخصيص كليات للبنات لكانت على حق.

وفتحت بعد ذلك بعشرين سنة كليات للفتيات فى الأزهر، لقد استيقظ بعدما فاته القطار. إن التدين القاصر ينيل أعداءه مكاسب كبيرة دون جهد يبذلونه»(١).

«إننا فى هذه الأيام كى ننتصر على الإلحاد، وعلى الأعداء المتربصين بالكتاب والسنة، يجب أن نقلّم أظافر هؤلاء الواقفين أمام الفقه الصحيح، والعمل الجاد المثمر. إنهم عند البصر الدقيق حرب على الإسلام»(٢).

---

(١) علل وأدوية: ص ٩٢.

(٢) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل: ص ٥١، ٦٧، ٦٨.

وفتح لها الرسول الكريم أبواب العلم:

السيدة عائشة «أم المؤمنين» فريدة الأزمنة.. وقمة العلوم الإسلامية وأستاذة الأئمة التى يشار إليها ويؤخذ عنها فى كل عصر.

نشأت وتربت فى مهاد العلم، وشربت حتى ارتوت من أنقى وأفضل ينابيعه.

احتضنها نبى هو القدوة.. وأستاذ هو النموذج الأسنى فى العلم والتربية.. ورجل نظر إليها علىَ أنها شطره، حتى لقد قيل فى المأثور: **«خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء»**.

هذا التكريم النبوى أليس رمزاً لمكانة المرأة الرفيعة؟!.

لكأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينصح كل رجل ليتعهد المرأة بالعلم، فهى قارورة أو وعاء يمكنه حفظ العلم كما يسمعه هو ويحفظه، وبأنها ثمرة مباركة يأتى منها خير عميم.

وأحياناً قد تتفوق على الرجل، وبذلك لا نجد فرقاً فى جودة الثمرة.. إن الفروق تظهر حين يوفر الأب تربة علمية خصبة لولده، ويقصى عنها ابنته!.

نساء خالدات بعلومهن!

ومن تشجيعه - صلى الله عليه وسلم - برزت نساء فى جميع الأعصر كن كالنجوم الزواهر الدائمة اللألاء فى سماء العلم،

والشيخ الغزالى من المتابعين لإسهامات المرأة الشرقية والغربية ومدى تأثيرها فى دفع عجلة نهضة مجتمعها.

إن المرأة لا تقل عن الرجل فى قدراتها العقلية وتوهجها الفكرى لو أتيحت لها فرص العلم كما ينبغى، فلقد نبغت نسوة فى علم لايتقنه سوى نخبة من رجال أوتوا ذهناً حاداً وقلباً مستوعباً، ونحن فى إطلالة سريعة على نساء نشرن العلوم الدينية، فاستحققن بذلك الذكر الخالد.

وفى أمجادهن يذكر أستاذنا الجليل:

«علوم السنة من أهم علوم الشريعة، والصدارة فيها تحتاج إلى ذهن ناقد مستوعب حفيظ.

وقد كنت أظن النساء آخر من يشتغل بهذه العلوم، بل أن يبرزن فيها ويبلغن مرتبة الإمامة، حتى قرأت رسالة «السنة النبوية فى القرن السادس الهجرى» للدكتور محمود إبراهيم الديك، فوجدت عالمات بالسنة لا يشق لهن غبار، ولسن نزراً يسيراً بل عشرات من العالمات الثقات..!

والقرن السادس ليس من قرون الازدهار العلمى فى تاريخنا، بل هو من أواخر العصر العباسى الثانى، عندما مالت شمس الدولة للغروب، ثم سقطت تحت براثن التتار فى منتصف القرن السابع!»[1].

(١) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل: ص ١٥٨، ١٥٩.

وقد ذكر شيخنا أسماء بعضهن فى كتابه «تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل» فى الصفحات (١٥٨ ـ ١٦٨) طبعة دار الشروق.

ويشير فيه إلى واحدة من هؤلاء «النسوة الأئمة» كما أطلق ـ رحمه الله ـ عليهن، وهى السيدة «شهدة بنت إبرى».

وتأكيداً منه بجدارة المرأة وتفوقها فى حمل العلم والعمل به، لم ير أهمية لذكر أسماء من أخذت عنهم، فقد يأخذ الرجل عن أبرز علماء زمانه ولكنه يبقى محدود العلم خامل الذكر، فالعبرة بالتفوق لا بالجنس، لذا يقول:

«لا يعنينى هنا أن أذكر الرجال الذين تلقت عنهم، وإنما يهمنى أن أذكر بعض من تلقوا العلم عليها ومنحتهم إجازة علمية بالرواية والتحديث..

قالوا: سمع منها أبو سعد بن السمعانى، وروى عنها الحافظ أبو القاسم بن عساكر، وهو المؤرخ المشهور، والموفق بن قدامة الفقيه الحنبلى، كما حدث أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى أنها من شيوخه!!»(١).

ويذكر أيضاً الأستاذ الغزالى فى هذه السياحة العلمية التى يسره أن تكون المرأة قائدتها، وقد أجازت العلم لرجال منهم الإمام الحافظ المنذرى، والواعظ الجليل ابن الجوزى، والمؤرخ الشهير ابن خلكان.. إلخ.

(١) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل: ص ١٥٨، ١٥٩.

كما يشيد بعظمة خُلق هؤلاء الرجال الأعلام:

« يا عجباً!! كبار المؤرخين والمحدثين يذكرون بتواضع العلماء وصدقهم أنهم أخذوا العلم عن نساء معروفات، وأنهم نالوا منهن شهادات تقدير وتكريم وثقة!!.

ماذا حدث لأمتنا فخلت الساحة من طالبات العلم وأساتذته، وجاءت قرون أمسى فيها ذهاب فتاة إلى مدرسة جريمة، بل خلت المساجد من العابدات فأضحت صلاة المرأة فى مسجد منكراً..!»[1].

وعندما نوصدها!..

يقول الإمام الغزالى:

«غضبى يشتد عندما أرى كلاماً يخدش كرامة الإسلام وينال من رسالته.

فقد سألنى أحد القراء عن حكم قرأه فى مصدر إسلامى مهم، أن عمر منع النساء من تعلم الخط، وكأنه يرى أن الأمية أولى بهن! فأجبت ساخراً: ولم تكون الأمية حكراً عليهن وحدهن؟ ينبغى أن تشمل الزوجين الذكر والأنثى تمشياً مع الفهم الأعوج لحديث «نحن أمة أمية»!!.

إن التشجيع على الأمية شيء ينكره الإسلام، ولبشاعة أمثال هذه الفرى ومردودها السيِّئ على الإسلام تناولها شيخنا الجليل ضمن مؤلف آخر له، قال بأسلوب ساخر لكنه هادف:

(١) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل: ص ٥٩، ٦٠، ١٦٢.

« كما ذكر بعضهم أن عمر كان ينهى عن تعليم النساء الخط(!). وهذا أثر منكر، وقد كانت حفصة ابنته - رضى الله عنها - كاتبة، فَلِمَ علَّمها؟ أو تركها تتعلم الخط؟ إذا كان ذلك لا يسوغ؟!

ولم يبق إلاّ أن يقول أحمق: تعلمت الكتابة فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام نهى عن ذلك؛ لأن الأمية جزء من غاياته ورسالاته!!.

إننى ألفت النظر إلى أن المواريث الشائعة بيننا تتضمن أموراً هى الكفر بعينه.. »[1].

حصاد حرمانها!

إن محاولات تجهيل المرأة يعنى جهل نصف المجتمع أو يربو، وإذا حام الخطر حول الأم وهى عميدة الأسرة فقد يطيح بجملتها وهى نواة المجتمع.

ومن هنا حذر من تجميد العقول بتعصب لا يجدى، ألا يكفينا الاسترسال فى كسل أضاع منا حضارة غطت العالم.. فلا أقل من أن نستفيد من الغرب وتفوقهم العلمى بعدما أيقظناهم نحن ثم.. نمنا!.. وطبيعى أن فاقد الشىء لا يعطيه.

يرى الشيخ الغزالى:

« .. منطق الجهل يصب سرادقه على جماهير غفيرة من الناس رأوا أن ذهاب المرأة إلى المسجد بدعة منكرة وأن تلقينها أنواع الثقافات تقليد أجنبى، وأن وعيها بالشئون العامة تطفل مرفوض!

(١) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل: ص ٥٩، ٦٠، ١٦٢.

وامرأة مغلقة على هذا النحو كيف تكون راعية بيت؟ وربة أسرة؟ ومنشئة أجيال محترمة؟ إن تقهقر الأمة الإسلامية فى الأعصار الأخيرة يعود إلى العجز الشائن فى فهم موقف الإسلام الصحيح من المرأة»(١).

وفى ظل هذا الحرمان المزرى بحق تعليم المرأة الذى يرى فيه الجهلة والغلاة عفة وتقى، كيف يتحول فى واقعه مصاباً يحل بها! يقدم الأستاذ الغزالى عينة ضئيلة لهذه القضية:

«قال لى صديق: إن امرأة متدينة دخلت مستشفى كبيراً لجراحة تحتاج إليها، واقتضى الأمر أن تكشف عليها طبيبة مختصة، وأبت المرأة أن تضع النقاب عن وجهها لأن الفتوى صدرت لها أن المرأة الأجنبية لا يجوز أن تطلع على وجه مسلمة!!.

قلت فى نفسى: ما يكون رأى الطبيبة فى ديننا ـ والحالة هذه؟ ـ إنه دين فرض على النساء الأمية، فلما انكسر هذا الحاجز بضغط الحضارة، حرم كشف الوجه، ثم حرم دراسة الطب فلا بد فى هذه الدراسة من مخالطة متخصصين. وها هى ذى المريضة المسلمة ترفض أن ترى وجهها امرأة على غير دينها.

أليس هذا الغرض الذى يفتح الباب على مصراعيه للغزو الثقافى الذى يجتاح الدين من أصوله، ولا يحترم له تشريعاً..؟»(٢).

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص٦٩.

(٢) الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا: ص ١٦٠، ١٦١.

ومن هذا الواقع المشوه ترتفع مناجاة شاعرنا العراقى الكبير «معروف الرصافى» باثًّـا شكواه:

أأم المؤمنـين إليـك نشـكو مصيبتنـا بجهـل الأمهـات

فتـلك مصيبـة يـا أم منهـا نكـاد نغـص بالمـاء الفـرات

نرى جهل الفتاة لها عفافاً كـأن الجهـل حصـن للفتاة

لئن وأدوا البنات فقد قبرنا جميـع نسائنا قبل الممات[1]

«إن حرمـان المـرأة مـن التعليـم، والتربيـة، والعبـادة الشخصية والاجتماعية والسياسية لا يمكن أن يكون إرضاء لله ولرسوله»[2].

* * *

(١) من هنا نعلم: ص ١٦٨.

(٢) معركة المصحف فى العالم الإسلامى: ص ٢٦٥.

الفصـــل السـادس:

هـــــى..
و
العمـــــل!

«إنى إذ أطلق المرأة من سجن الجهل والقصور ـ الذى حبسها فيه الغافلون ـ لا أتصور أن يكون إطلاق سراحها لكى تجرفها عواصف الشهوات..».

الشيخ محمد الغزالى

المرأة.. والخروج.. و العمل!.

حال المرأة فى الأمم قبل الإسلام..

هناك أغنية صينية عبرت بعمق وصدق عن الصورة المهينة المزرية للمرأة فى العصور الغابرة..

تقول الأغنية:

«ما أتعس حظ المرأة.. ليس شىء فى العالم أقل قيمة منها.. إنه بينما يقف الصبيان متكئين على الأبواب كأنهم آلهة سقطوا من السماء.. فإن البنت لا يُسر أحد لمولدها.. وإذا اختفت من منزلها فلن يبكيها أحد..»[1]!!

لكأن هذه الأنشودة كانت تنبعث من مغزل يرسل الخيوط حزناً صامتاً مفعماً بالشجن، وهو يغطى الأنثى عالمياً، حتى بزغ الإسلام فى أرض العرب ليطوى انكسارها الاجتماعى ويحررها من سطوة الرجل.. فتحركت بحرية ووقفت مساوية له فى المكانة.

لكن الضلال الفكرى أبى لها رقى المنزلة!!.. فقد تراجعت هذه المكانة الوضيئة المنصفة حتى أعادتها إلى سجن تقاليد الجاهلية!.

فى ظل تراجعها!:

وبديهى أن يكون للأستاذ الإمام الغزالى موقف من تراجعها:

« ثم ساء وضع المرأة فى القرون الأخيرة مع جمود العقل

---

(١) أحمد موسى سالم (بناء الأسرة فى هدى القرآن) ص ٩٠.

الإســلامى، وضيـاع نضرتــه، وسيطــرة الترهـات والأوهـام علـى اتجاهاته!!

ولا عجب فهل يرجى بقاء المرأة فى المكانة التى بوأها الإسلام إياها مع انحدار المجتمع كله؟ وذهول الرجال عن وظيفتهم فى الحياة؟ وغيبوبة الأمة كلها عن وعيها؟

إن تعاليم الإسلام تقلصت فى ميادين شتى، فليس بغريب أن تتقلص فى العلاقات بين الجنسين!!

لقد تقرر سجن المرأة فى أغلب المدن، وعدت جدران البيت الحدود الأربعة لفكرها ونشاطها، وقصرت على الناحية الحيوانية وحدها.»(١).

كما كان للأستاذ الغزالى أيضاً منهجه الخاص أمام انطلاقتها بعد انكماش أعصر سجنها ؛ فقد شنّ ـ رحمه الله ـ حملة على أوساط ما زالت تتشبث بفكر الجاهلية محاولة إعادتها بشكل يعرض الأمة لنوع من الانهيار.

كما رأى أستاذنا المصلح أن من بدائله فى عصر سريع التطور وحضارة ضاغطة، عودة الإنسان المسلم بسرعة وبعزيمة قوية إلى النظام الأمثل المطبق على عهد الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكما هاجم الأستاذ الغزالى دعاة سجنها.. فقد هاجم بضراوة أشد دعاة تغريبها وخاصة مِمَّنْ يشغلون مواقع القوى!!.

(١) الإسلام والطاقات المعطلة: ص ١٤١.

بدء انطلاقها..

من أجل تحقيق هدف نبيل ورسالة سامية لها أثرها فى خدمة الأسرة والمجتمع بنى الشيخ الغزالى منهجه فى مغادرة المرأة بيتها بعض الوقت، ولأسباب وجيهة تقصر عن التسكع وقضاء وقت دون طائل. وحول هذه الفائدة المرجوة التحقيق يقول:

«جاء الإسلام فغيَّر هذه الأوضاع والأفكار واستخرج المرأة من البيت إلى المسجد خمس مرات كل يوم، إذا كان ذلك لا ينقص عملها لولدها ولزوجها، وتقدير ذلك إليها..!»(١).

«إن شخصية المرأة ولدت مع مجىء الرسالة الإسلامية..».

«وما كان للمرأة هذا الامتداد فى شخصيتها من قبل، وإن كان الأمر قد سار فى اتجاه آخر، غلبة للتقاليد القديمة لا انسياقاً مع تعاليم الإسلام»(٢).

«لقد كافأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نسوة خرجن وراء الجيش للقيام بخدمات طبية ومدنية، وبايع نساء تحت الشجرة، ومن قبل فى العقبة الكبرى. وسرّه أن بعضهن قاتل الكفار»(٣).

ومن هذه المساحات المشرقة للمرأة المسلمة أخرج لنا الأستاذ الغزالى صوراً مثالية لها من بطون التاريخ للتدليل على منزلتها عندما تتاح لها فرص الانطلاق والتحرك ـ بعد تسلحها بالإيمان ـ واستلهامها شجاعة الصحابيات.

---

(١) و (٢) مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية: ص ٥١.

(٣) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل: ص ٦٧.

ففى المقاومة الشعبية ضد الهجوم الفرنسى على مصر برز بعضهن فوقفن مع كوكبة من إخوانهم المجاهدين يقدمن صوراً بطولية مساوية للرجل إن لم تكن أفضل من بعضهم ممن آثر النجاة بحياته، حيث «قبضوا على كثيرين وأعدموا سراً بالقلعة دون محاكمة. وبينهم عدد كبير من النساء»(١).

تلك بطولة نادرة عاشتها المرأة فى عصر غلب عليه الجمود مقيداً حركتها، بيد أنها استطاعت القفز لكسر حاجز الظنون أمام رجال ينقصهم الاعتراف بجدارتها عند الأزمات.

إن الأستاذ الغزالى رصد حركتها الرائدة خارج منزلها فى عصرنا الراهن الذى أثبتت فيه كفاءتها ومواهبها، حرباً وسلماً. وقدم نموذجاً للمرأة المصرية والجزائرية وأختها فى البوسنة وفى فلسطين.. إلخ. ومع لقطة تجمع بين الأمومة والبطولة والمشاعر الإيمانية فوق أرضها المغتصبة:

«تابعت الانتفاضة الكبيرة لإخواننا فى فلسطين المحتلة، ورأيت البنين والبنات يقذفون بالحجارة جيش إسرائيل المزود بأحدث الأسلحة وأفتكها، لم تخنهم شجاعتهم، ولم يتسلل إلى قلوبهم خوف أو جزع ! ورأيت الأمهات العربيات يخرجن من المخيمات المحاصرة لجلب الطعام إلى أطفالهن، ورأيت هذا الطعام يداس تحت نعال الجنود»(٢).

---

(١) معركة المصحف فى العالم الإسلامى: ص ١١١.

(٢) الحق المر: ١/ ١٥٦.

لا شك أنه حصاد هو من نتائج تواصل التربية النبوية الغراء.

ومع هذه الإشراقات الجليلة وذات القيم النبيلة، لكن المرأة المعاصرة وجدت نفسها أمام عبء يضاف إلى حياتها المشحونة هموماً نتيجة فكر شرود من بعض الرجال!:

«الأزمة الموجودة الآن فى الأمة الإسلامية أن البعض يريد تخييرها بين أمرين: إما حبس المرأة فى البيت، وإما إطلاقها فى الشارع، وهو تخيير بين أمرين أحلاهما مر!!.»[1].

ويضيف الشيخ الجليل:

«وهناك تقاليد اجتماعية لابد من إعادة النظر فيها حتى تستقيم مع ديننا وأحكامه الصحيحة.. وهى تقاليد تتصل بوضع المرأة.. وتكوين الأسرة.

إننى أحد الذين حاربوا تقاليد الغرب الجنسية، وجاهليته الذميمة فى إشباع الغرائز من الحرام.. وقد وقفت فى وجه الذين يحاولون نقل هذه التقاليد فى بلادنا وقفة جرت علىّ المتاعب.. وإنى لراض كل الرضا عما أصابنى فى هذا الميدان.. لأنه فى سبيل الله. إلاّ أنه حدث ما جعلنى أطيل الفكرة فى العلاقة بين الجنسين، ومكانة المرأة فى بنائنا الاجتماعى، لقد رأيت البعض يؤكد أن المرأة قعيدة بيتها.. لا تخرج منه أبداً إلا إلى الزواج أو إلى القبر!!.

قلت: أهذا هو البديل الإسلامى عن حالة المرأة فى الغرب.. بشقيه الشيوعى والرأسمالى؟!

(١) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل: ص ٦٧.

لا . . الإسلام غير ذلك . . إن قرون التخلف التى مرت بنا انتهت فى القرن الماضى بوضع للمرأة المسلمة لا يقول به فقيه مسلم!

لقد رأيت المرأة فى بلادنا لا تدخل مسجداً أبداً . . بل فى قرانا، وكثير من المدن كانت المرأة لا تصلى، وهى إلى جانب هذا الحرمان الروحى كان التعليم محرماً عليها فلا تدخل مدرسة أبداً.

وقلما يؤخذ لها رأى فى الزواج . . ويغلب أن يجتاح ميراثها.

هل هذه المعالم المنكورة لحياة المرأة تنسب إلى الإسلام؟ الله يعلم أن الإسلام برىء من هذه التقاليد، كما هو برىء من المفاسد الجنسية فى أوربا وأميركا»[1].

وفى سياق دفاعه عن حرية المرأة يلفت أنظارنا نحو مؤلفات ضمنها الكثير من جهوده فى هذا الميدان:

«ولست أعيد هنا كلاماً سبق أن بسطت أطرافه فى كتبى الأخرى «من هنا نعلم»، و«الإسلام والطاقات المعطلة»، و«حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة»، و«فقه السيرة» وغيرها. إن الذى يطلع على ما كتب فى هذه المؤلفات يدرك أنى أنصفت الإسلام من الأفهام الخاطئة، والتقاليد الزائفة التى قامت على إمساك النساء فى البيوت حتى يتوفاهن الموت، والتى جمدت نشاطهن الإنسانى وجعلتهن أصفاراً فى الدين والدنيا»[2].

---

(١) هموم داعية: ص ١٤٧، ١٤٨.

(٢) معركة المصحف فى العالم الإسلامى: ص ٢٦٤، ٢٦٥.

بين وجهين دميمين!

«الدين الصحيح يأبى تقاليد أمم تحبس النساء وتضيق عليهن الخناق، وتضن عليهن بشتى الحقوق والواجبات، كما يأبى تقاليد أمم أخرى جعلت الأعراض كلأ مباحاً، وأهملت شرائع الله كلها عندما تركت غرائز الدنيا تتنفس كيف تشاء..

يمكن أن تعمل المرأة داخل البيت وخارجه، بيد أن الضمانات مطلوبة لحفظ مستقبل الأسرة، ومطلوب أيضاً توفير جو من التقى والعفاف تؤدى فيه المرأة ما قد تكلف به من عمل»(١).

وخروج المرأة للعمل كان إذناً من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول للنساء:

«اخرجن فى حوائجكن».

وخرجت المرأة تحيطها هالتان: الإيمان، واحترام الرجل! لكنها عادت القهقرى لتعيش الإمساك فى البيت فى عصر التنكر لتعاليم الإسلام.

ويرى الشيخ الغزالى أن عودة المرأة إلى البيت فى هذا العصر لايمثل خطراً واحداً يهدد مكانتها المرموقة فى مجتمعها كما شرعها الإسلام، إنما يمثل خطرين متنافرين وإن اشتركا فى وجه واحد دميم:

«فلما خرجت المرأة من البيت قسراً تكاتف أهل الدين على

---

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص ٥٢.

إدخالها فيه لتستأنف حياتها الأولى نفسها. فلما فشلوا تعالى صراخهم بلعنتها ولعنة من أخرجها»(١).

«يوجد الآن من العاملين فى الحقل الإسلامى من يكره أحوال المرأة فى هذا العصر، ويريد العودة بها إلى الأوضاع المأنوسة منذ مائة عام صائحاً: لا عمل للمرأة إلا ولادة الرجال (!)»(٢).

ولكن.. أحقاً هذا التفكير الطائش هو عمل المرأة وحسب؟!.

لنا هذه الوقفة مع صحابية جليلة القدر «أسماء بنت أبى بكر الصديق» و«ذات النطاقين» لتزيل هذه الغشاوة عن عقول صدئة كهذه، لتقول ـ رضى الله عنها ـ كما ورد فى المصادر التاريخية المعتبرة:

«كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله، وكنت أسوس فرسه وأعلفه، وأحتش له، وأخرز الدلو، وأسقى الماء، وأنقل النوى على رأسى من أرض له على ثلثى فرسخ».

أعمال كلها تتطلب مغادرة هذه الصحابية الجليلة بيتها أوقاتاً طويلة، فهل منعها أحد أو عاب خروجها؟

ومن أغير من الرجال اليوم على أهله من حوارى الرسول الكريم، الزبير بن العوام رضى الله عنه!!.

وفى أمثال هؤلاء ممن يعيب على المرأة خروجها فى شئونها يقول ـ رحمه الله ـ:

---

(١) من هنا نعلم: ص ١٤٧.
(٢) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل: ص ١٦٢.

«لقد رأيت بعض الإسلاميين يفقد وعيه فى الدفاع عن موروثات ما أنزل الله بها من سلطان، كأن من السهل عليه أن يكذّب الله ورسوله، ولا تُمس عادات تلقاها عن آبائه!!»[1].

أما الوجه الآخر الذى يراه الأستاذ الجليل أخطر وأشد بكثير على المرأة هو شدّها لمدنية الغرب وسلوكها الذى يعارض قيمنا الدينية، حتى يقول:

«إننى - مع غيرى من أهل الإيمان - نريد أن تشترك المرأة فى الحياة العامة، أى: أن تحمل نصيبها الصحيح من الأعمال التى تتقنها بطبيعتها..

إن الله يكلفها بجزء ضخم من بناء المجتمع - كما يكلف الرجـال - لكن الحضارة الحديثة التى رأيناها فى بلادنا جعلت من المرأة بلاء على المجتمع ورجسًا فى جنباته..

الخلاف الحقيقى بين الإسلام ومدنية الغرب ليس فى ضمان حق الحياة والعمل والإنتاج للمرأة، ليس فى ضمان الرقى الأدبى والمادى لها.. فإن الإسلام سبق فى هذا المجال سبقاً حاسماً.

إنما الخلاف:

هل المرأة كلأ مباح أم لا؟

هل جسمها وعرضها نهب للكلاب والذئاب أم لا؟

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٨ .

هل تشتبك مع الرجال فى أحفال الرقص أم لا؟

هل تُحشر حشراً فى الفصول والمدرجات بين الطلاب الذكور أم تقوم الفواصل بينها وبينهم؟

هل يترك الاختلاط طليقاً يؤدى لنتائجه المرّة أم توضع له المعالم التى تباعد بين الأنفاس وتصون حرمات الله والناس؟

هذا هو الخلاف الحقيقى..»(١).

وعبر هذه التساؤلات نتعرف على الوجهة التى تعيد للمرأة مسارها الصحيح عندما تغادر البيت وتشارك الرجل فى بناء كيان الأمة والمجتمع.

إن جو الأسرة الإسلامية أمنع من أن يُلوث بسموم الغرب أو ناقليها..

«ونحن نأبى كل الإباء الخلخلة الاجتماعية التى ينقلها إلينا عبيد الغرب حين يزجون بالمرأة فى كل مكان غير متقيدين بآداب الشريعة وحدودها من نواحى الاختلاط، والزى، وإتاحة الصلات المريبة والمسالك المعيبة»(٢).

وما بين الفكر التغريبى والفكر الجامد فللأستاذ الغزالى رأيه:

«والحقيقة أن الشريعة الإسلامية فى شئون النساء تخرج من بين فرث ودم، فالجاهلية العربية التى فرضت نفسها مئات السنين

(١) الإسلام والطاقات المعطلة: ص ١٥٠، ١٥١.

(٢) معركة المصحف فى العالم الإسلامى: ص ٢٦٩.

مرفوضة، والجاهلية الأوروبية الوافدة مرفوضة هى الأخرى، وبعض المتحدثين فى الإسلام يبغى العودة بالمرأة إلى التقاليد البدوية، أو الأوضاع الجاهلية المزدرية للأنوثة.. كما أن بعضاً آخر يريد تقليد أوروبا فى كل شىء، وأحكام الإسلام أشرف من أن يثرثر بها هؤلاء وأولئك..»[1].

أعمال مرفوضة!

قسَّم الأستاذ الغزالى الأعمال المنوطة بالمرأة والتى ينبغى اختفاؤها ـ من وحى إشفاقه عليها ـ إلى ثلاثة أقسام:

منها ما يتعارض وتعاليم ديننا..

ومنها ما لا يليق ومساواتها بالرجل..

ومنها ما يزرى بمكانتها.. إذ إن ممارستها هذه الأعمال يسبب شرخاً فى كيان الأمة.

وفى دائرة الأعمال التى تمس الدين، يشرح علة ذلك:

«والدين يرفض أى خلوة بين رجل وامرأة، والحضارة المعاصرة تتجاهل هذا الرفض، وهو يباعد بين أنفاس الرجال والنساء، وهى تقرب بينهم فى الأعمال الجادة والهازلة..

وكثيراً ما تساءلت: لماذا تكون للمدير سكرتيرة خاصة؟..

لماذا تشتغل الفتيات بالخدمة فى الطائرات وحدهن؟ ويقضين فى الجو وفى الفنادق ليلهن ونهارهن؟ إن النساء يُحشرن فى أعمال

---

(١) سر تأخر العرب والمسلمين: ص ٢٢.

كثيرة لا معنى لها.. وعندما نقرر أحكام الإسلام وتوجيهاته فإن ابتذال المرأة سيمنع على الفوْر، وسيكون فى أى موقع مضبوطاً بآداب الشرع وحدوده. ذلك، ومن الصعب أن تكون المرأة ربة بيت متقنة وصاحبة منصب منتجة»[1].

«وعندى أن الرجل أقدر على العمل فى الطائرات من المرأة، وأن وظيفة «مضيفة» يجب أن تختفى»[2].

وينفى الشيخ الغزالى فى بنود منهجه إقحامها فى أعمال تذيب أنوثتها على أمل إثبات مساواتها بالرجل:

«فى جنون المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة فى ميادين الأعمال، وقعت قصة تستحق التسجيل، فقد رأى البعض تشغيل فتيات محصلات فى الحافلات العامة، والباصات فى القاهرة تغص بحشود من البشر يزحم بعضها بعضاً، فلا يكاد الرجل الجَلْد يجد طريقاً بينها، فكيف بالفتيات؟

وعاشت التجربة يوماً ولم تتكرر..

ورأيت فى عاصمة عربية (شرطية) تنظم المرور، فقلت: هذا عمل شاق، ما كان ينبغى أن تدفع النساء إليه، قد تشتغل المرأة شرطية لتفتيش النساء مثلاً، وما يشبه هذه الأعمال الخاصة، أما الوقوف فى الحر والبرد، ودوران البصر وراء قوافل السيارات والمشاة فلا..»[3].

---

(١) مائة سؤال فى الإسلام: ٢/ ٢٧٢.
(٢)، (٣) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ٣٨.

وحول أعمال تزرى بكرامتها، سيقت إليها بدافع الحاجة والعوز المادى الملحّ، قال ـ رحمه الله ـ:

«حكى لى صديق قادم من موسكو قال: إن النساء هناك يغسلن الشوارع فى الصباح، ويشتغلن بالأعمال كلها.. وإن خصائص الأنوثة من نعومة ورقة تكاد تختفى مع قسوة الواجبات التى تفرض على طوائف العاملات.. بل حكى لى أنه رأى عجوزاً تصعد مساء إلى السيارة، قافلة إلى بيتها وهى تترنح لا أدرى أهى سكرى أم من الإعياء..

إننى أرفض هذه الأعمال، والمساواة فى الأعمال»(١).

إن القلب المؤمن يرق أمام مشاهد سحق الإنسانية.. أياً كانت جنسيتها أو دينها، فكيف إذا كان هذا الإنسان امرأة ضعيفة ومسلمة؟!.. لذا يكرر الغزالى بلمساته المرهفة وملاحظاته الذكية الدقيقة منهجه إزاء التعامل مع المرأة:

«بل إننى رفضت أن تقوم النساء بغسل شوارع «موسكو» ليلاً وعافت نفسى إسناد هذه المهنة لهن عندنا!..

إن كل الذى أريده تنفيذ تعليمات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أن النساء شقائق الرجال، وتنفيذ الحقيقة القرآنية: ﴿ لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ٣٨، ٣٩.

أما هذا السحق لشخصية المرأة، وعدّها للمهام الجسدية وحدها فذاك عوج أعتقد أن تقاليد الصحراء هى المسئولة عنه، لا تعاليم الإسلام، ومن الظلم أن يؤاخذ الإسلام بتقاليد أمة من الأمم دخلت فيه.

على هذه الأمة أن تنقاد لتعاليم الإسلام لا أن تفرض تقاليدها على هدايات الله..»[١].

«من أجل هذا وافقت وأنا مستريح الضمير على ما نشرته منظمة الصحة العالمية، شرق البحر المتوسط، فى تقريرها الأخير، قال: وفى جميع الأحوال لا يليق بالمرأة أن تعمل فى المجالات التى لاتلائم طبيعتها....».[٢]

عملها الأمثل!..

رغم ما عرف عن الأستاذ الغزالى من مؤازرة المرأة فى خروجها ومزاولتها بعض المهن التى تحسّن أوضاعها الاقتصادية، بيد أنه أعطى الأولوية فى الوقوف عند حدودها الفطرية التى وظفها لها الشارع العظيم، سبحانه وتعالى.

فللمرأة مملكة لا ينبغى التنازل عنها لتزاحم الرجل من أجل مقولة (إثبات وجودها!).

وفى هذا المجال نثبت رأيه كما ورد فى أوائل كتبه «الإسلام والطاقات المعطلة»:

---

(١) مائة سؤال فى الإسلام: ٢/٢٠١، ٢٠٢.
(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ٣٩.

«وسوّى الإسلام بين الجنسين فى أعمال البر كلها، فأرجحها عند الله ميزاناً أخلصها نيّة وأكثرها سعياً. . !

إلا أن العمل الأول للمرأة هو حسن تَبَعُّل الزوج، أو بتعبير العصر الحاضر: حسن القيام على شئون البيت وأحوال الأسرة ورعاية الأولاد.

وإجادة المرأة لهذا الواجب يغنيها عن سائر الواجبات العامة من اجتماعية وسياسية»[1].

رأيه الثابت:

ويلاحظ أن هذا الرأى رغم مرور عقود طويلة ما زال الإمام يتخذه مبدأ لا يحيد عنه، شأنه فى سائر القضايا التى وردت فى مؤلفاته.

فخير أعمالها تلك التى تباعد الفطرة بينها وبين الرجل!.

ونرى فى كتابه «هذا ديننا» الذى صدر فى أواخر الثمانينات:

«أما فى الأمور الاجتماعية وشئون المعاملات العامة فالذى لاشك فيه أن الإسلام يجعل وظيفة المرأة أكثرها فى البيت وأقلها فى ميدان الحياة الصاخبة. .

ومن ثم فهو بهذا الإجراء يريد صرفها إلى ما خُلقت له، وإلى ما يتناسب وخصائصها العتيدة من أمومة وتربية ورعاية لجانب خطير فى المجتمع الإنسانى، جانب لا يصلح غيرها له. . !!»[2].

---

(١) الإسلام والطاقات المعطلة: ص ١٣٦.

(٢) هذا ديننا: ص ٤٩.

وفى معركة المصحف يقول:

«ولقد عُرف أنى لم أهش لتوظيف المرأة فى كل عمل، ولالتسويتها بالرجل فى كل ميدان، وقلت: إن وظيفة ربة البيت هى أليق شىء لها»(١).

وفى مؤلفه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»:

«على أن الأساس الذى ينبغى أن نرتبط به أو نظل قريبين منه هو البيت، إننى أشعر بقلق من ترك الأولاد للخدم أو حتى لدور الحضانة.

إن أنفاس الأم عميقة الآثار فى إنضاج الفضائل وحماية النشء.

ويجب أن نبحث عن ألف وسيلة لتقريب المرأة من وظيفتها الأولى وهذا ميسور لو فهمنا الدين على وجهه الصحيح، وتركنا الانحراف والغلو..»(٢).

على أنه ـ رحمه الله ـ لم يشأ أن تكون هذه الدائرة التى رسمها لها القدر من واقع الفطرة سجناً لا مندوحة لها من اجتياز حدوده تحت ضغط الحاجة الملحة، أو ما يصلح له تخصصها دون الرجل!.

«فالمجالات التى تحسنها المرأة وتتناسب معها كثيرة ومتعددة كميدان الطب والتعليم والتمريض والرعاية الاجتماعية، والكتابة

(١) معركة المصحف فى العالم الإسلامى: ص ٢٦٦.
(٢) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص ٥٣.

والنشر، وبعض الوظائف غير المرهقة، وتستطيع فوق ذلك أن تغشى الأسواق فى حكمة ووقار فتبيع وتبتاع»[1].

فى عالم توليتها المناصب الكبرى

قضاء المرأة بين الرأى الخاص.. والإفتاء الفقهى:

علمنا أن الشيخ الفقيه الغزالى لا يهوى تولية المرأة مناصب تبعدها عن دائرتها الفطرية، وتلك التى تنسجم مع شخصيتها وأهميتها لبنات جنسها. . أعنى التعليم والطب.

على أنه بفكره الحر الثائر يرفض إخضاع وجهات النظر الخاصة لما يتعارض مع أحكام الإسلام!.

هذا ما جعل أستاذنا الجليل يحدد موقفه النهائى من قضية «المرأة والقضاء».

فقد يتعرض المرء لأن يغير رأيه، ويصحح موقفه أمام الوجهة الصائبة، بيد أن معظمنا يخضع لفقر ذوقى وسلوكى، إذ يسهل عليه أن يمارى نفسه ويمارى الآخرين من خلال تبريرات واهية قد تدينه أكثر مما تسعفه، ولا يعترف أو يعود عن خطئه. . وفى أمثال هؤلاء كثير، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ٣٩.

وشيخنا الغزالى ـ رحمه الله ـ كانت له مواقف ووجهات نظر نابعة عن رؤية وقتية اعتقدها صائبة، بيد أنها لم تأخذ وقتها الكامل من الدراسة العميقة والتمحيص والمراجعة الشاملة ـ كما رأى ـ لذا فأمام البحث المتواصل عبر سنين طوال مع فكر نابه وخلق رفيع تراجع عنها ليقول:

«وقد تبين لى ـ وأنا باحث أنشد الحق ولا أبتغى إلا وجه ربى ـ أن كثيراً من مواطئ أقدامنا تحتاج إلى تبيين.. وأن بعض الآراء والاجتهادات ربما تحتاج إلى تمحيص، مع ظهور حقائق جديدة، ومأأفدته من تجربة العقود الثلاثة الماضية».. حتى يقول:

«كنا قد عرضنا لبعض القضايا.. وقد جدّ من الحقائق ما يدعونا إلى أن نعود إليها بشىء من التمحيص.. فقد كان هناك شطط فى المصادر التى نقلت هذه الصور وبالغت فى تشويهها».

حتى ينتهى إلى قوله:

«فلما تكشفت الحقائق لزم تغيير الآراء (وهذا باب من أبواب الاجتهاد التى تتغير فيها الرؤى والأحكام)»[1].

إنه بهذا التراجع يذكرنا بفارس نبيل يلوى عنان فرسه أمام معركة لا إنصاف للحق فيها.

---

(١) من مقدمة «الإسلام والأوضاع الاقتصادية»: ص ٩، ١١، ١٢ دار الصحوة للنشر (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) القاهرة.

وحقــًا أنصف فى وصفه المفكر الإسلامى الكبير الدكتور محمد عمارة، عندما قال:

«إنه الرجل الأوَّاب»[1]!!.

ومع أن قانون السلطة القضائية فى مصر لم يسمح بتولية المرأة منصب القضاء، بيد أننا بإزاء موقف لمسألة فقهية تناولها الأستاذ الغزالى فى بداية بحوثه، وبعد سنوات فى ظلال الخبرة والاطلاع غيَّر رأيه منها بشجاعة، تلك مسألة تولية المرأة القضاء، والتى تناولها بالرفض فى أوائل بحوثه «من هنا نعلم» من خلال وجهة نظره وتقييمه الخاص يؤكدها خلو رأيه هذا من أى أحكام ونصوص اعتمدها لتعزيز وجهة نظره!..

ولما كان شيخنا من العلماء الفقهاء المجددين الذين لا يتركون وقتهم دون تعلم أو تعليم، فقد مضت حقبة من التتبع والتحصيل العلمى وجد نفسه أمام حقائق فقهية تلزمه كباحث مخلص أمام علمه، لإعلان موقفه الجديد مؤكداً ذلك فى أكثر من مؤلف ولقاء صحفى مؤيداً توليتها القضاء، منها «دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين» و«مائة سؤال فى الإسلام» و«مستقبل الإسلام خارج أرضه» و«السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» مدعماً بهدى السنة وأقوال الأئمة كأبى حنيفة والطبرى وابن حزم..

قال الغزالى فى كتابه (مستقبل الإسلام خارج أرضه):

---

(١) د. محمد عمارة: «الشيخ محمد الغزالى: الموقع الفكرى والمعارك الفكرية»: ص٨٥.

«أذكر أننى حكيت فى مكان آخر قصة صحافى جاء يسألنى: هل تتولى المرأة القضاء ؟ ما حكم الإسلام فى ذلك؟ فقلت له: تريد حكم الإسلام؟ قال: نعم. قلت: ويسرك أن يبيح الإسلام للمرأة تولِّى هذا المنصب؟ قال: نعم. قلت له:

إن شرائع الإسلام اليوم معطلة فى القصاص والحدود، فإن تولت المرأة القضاء وأحيت ما مات من أمر الله فالإسلام يرحب بالمرأة قاضية!

وكان يسمعنا واحد من علماء الدين التقليديين فسألنى على عجل: مـــاذا قلت؟ فأجبته: هو ما سمعت. فقال: لا.. تبقى الأحكام معطلة ولا تحييها امرأة (!)

قلت له: إنك امرؤ فيك جاهلية، إن الأحناف قالوا: يصح قضاء المرأة فيما تصح شهادتها فيه، والظاهرية قالوا: تشهد فى الحدود والقصاص..

ولأن ينتصر مذهب إسلامى أفضل من أن تُعطَّل نصوص الكتاب والسنة، إنك ممن يكرهون النساء اتباعاً لتقاليد أضرت بالإسلام وما نفعته..»(١).

ويبدو أن بعض المنتصرين للاستغلاق الفكرى وسطوة العرف أزعجتهم هذه الحقيقة، كما لو كان التراجع عن الخطأ ثلمة أو رذيلة لا.. فضيلة، وكفراً لاجانباً إيمانياً، فغلا صوتهم مستنكراً مهاجماً.

(١) مستقبل الإسلام خارج أرضه: ص ٥٦، ٥٧.

وأخذت الغارة مساحة أشد حينما تناول الموضوع فى كتابه الأكثر شهرة وإقبالاً «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» فمضوا ليتخذوا من موقفه القديم ذريعة للهجوم والتجريح ما وسعهم! . . بيد أن هذا الفقيه الجليل ـ كما كان شجاعاً نبيلاً في تراجعه ـ فقد كان أشد شجاعة فى ثباته على المبدأ أمام جحافل المتنطعين.

ومن ساحات المواجهة الساخنة أنقل هذا الرد الذى يمثل مسألة أخرى، تصلح لكل قضية ؛ لأنها جزء لا ينفصل عن خلق الإمام الفقيه الغزالى وشخصيته الفذة ومنهجه العام:

«المنهج الذى هدانى الله إليه ـ وله المنة ـ أن أعرف الرجال بالحق، ولا أعرف الحق بالرجال! وأن أنظر بتأمل إلى ما قيل ولا أنظر بتهيب إلى من قال! .»(1).

وبمثل هذه الكلمة الموجزة البليغة المشحونة بحرارة الإيمان وصدق العقيدة ومقارعة الحجة بالحجة واجه هذا العالم الجليل خصومه، ولو كانوا أنداداً لعلمه لاتخذ الرد شكلاً مغايراً. . إذ لا يفهم العلماء إلا العلماء. . ولا يقدر دعاة الحق من الفقهاء المجددين سوى نظرائهم!!.

وظائف أخرى!!:

وعلى هامش الضجة التى أحدثها مؤلفه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» وجه إلى شيخنا الغزالى سؤال عبر جريدة «المسلمون» مفاده:

(1) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص ١٩٠.

«ذكرتم أن هناك إجماعاً من الأئمة الأربعة على جواز تولى المرأة القضاء والحكومة.. والحقيقة غير ذلك.. هذا ما قاله بعض المعارضين فما قولكم؟..».

وفى دقته العلمية أجاب الأستاذ الفقيه:

ـ «أولاً.. لم أقل إجماعاً.. والكتاب موجود لمن يريد الاطلاع بنفسه.. بل قلت: من حقى أن أتخير من مذاهب الفقهاء مايناسب نشر الدعوة ويعزز نجاحها حيث يكون، فهذا رأى فقهى لم أخترعه أنا.

قال ابن جرير الطبرى: «إن المرأة يمكن أن تكون إماماً»، وابن حزم قال: «يمكن للمرأة أن تكون وزيرة أو حاكم إقليم، وما تمنع عنه هو الخلافة العظمى». وهذا رأى موجود فى الفقه الإسلامى وقمت باختياره».

والأستاذ الغزالى لم يكن من المتحمسين لشغل المرأة الوظائف الكبرى كما ورد آنفاً، لكنه لا يجد ضيراً عندما تتطلب ذلك المصلحة العامة:

«ولسنا من عشاق جعل النساء رئيسات للدول أو رئيسات للحكومات!.. إننا نعشق شيئاً واحداً، أن يرأس الدولة أو الحكومة أكفأ إنسان فى الأمة..»[1].

لذا فالشيخ الغزالى ـ استناداً إلى أقوال بعض الأئمة ـ لا يرى مانعاً من توليها الرئاسة والوزارة والسفارة، حاشا الخلافة العظمى.

(١) جريدة «المسلمون» العدد (٢٥٢) ١٤١٠هـ.

ومع ذلك.. تبدو وجهة الإمام فاترة أمام شغلها منصباً ما دون ضرورة قاهرة، تؤكدها وجهة نظره الخاصة:

«ومرة أخرى أؤكد أنى لست من هواة تولية النساء المناصب الضخمة، فإن الكملة من النساء قلائل، وتكاد المصادفات تكشفهن، وكل ما أبغى هو تفسير حديث ورد فى الكتب، ومنع التناقض بين الكتاب وبعض الآثار الواردة أو التى تفهم على غير وجهها! ثم منع التناقض بين الحديث والواقع التاريخى»[1].

وما بين وجهة النظر الخاصة والوجهة العامة من خلال الفقه، نقول: إن رحمة الله أوسع من أن تعدم رجالاً أكفاء للأمة الإسلامية، وكذلك نساء يخدمنها بما يرقى بمستواها!

***

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ٥٦، ٥٨.

الفصــل السابع:

الزواج والأسرة

فى ظل الإسلام

«إننى أشعر أن أحكاماً قرآنية ثابتة أُهملت كل الإهمال لأنها تتصل بمصلحة المرأة، منها أنه قلما نالت امرأة ميراثها، وقلما استشيرت فى زواجها.

وبين كل مائة ألف طلاق يمكن أن يقع تمتيع مطلقة.. أما قوله تعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ فهو كلام للتلاوة».

الشيخ محمد الغزالى

لماذا الزواج؟..

يرى شيخنا الغزالى أن الزواج بين الرجل والمرأة نعمة من المولى سبحانه وتعالى؛ كى تستقيم وتمتد الحياة، ومع كونه سمة يشترك فيها الإنسان والحيوان، بيد أنها تشيع لدى الإنسان معانى الاستقرار والدفء والمودة والسعادة.. كما تبعد عنه شبح القلق ورتابة الحياة وضغوطها النفسية، وينبغى أن يتم الارتباط ضمن أجواء الطهر والتقى والعفاف، كما حذر من خطر الانزلاق نحو مهاوى الرذيلة، وعنده أيضاً ـ رحمه الله ـ:

«إن الزواج ليس تنفيساً عن ميل بدنى فقط، إنه شركة مادية وأدبية واجتماعية تتطلب مؤهلات شتى، وإلى أن يتم استكمال هذه المؤهلات وضع الإسلام أسس حياة تكفل الطهر والأدب للفتيان والفتيات على سواء»(1).

«إن السعادة الزوجية من مطالب المؤمنين، فالمؤمن يكره أن يعيش مستوحشاً قلقاً لا قرار له، ومن ثم جاء فى دعاء عباد الرحمن: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾(2) أى: قدوة، ولنذكر ما روته عائشة ـ رضى الله عنها ـ مرفوعًا: «تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء»(3).

وفى امتداد الحياة يرى الزواج:

---

(1) و (3) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ٤١، ١٠٥.
(2) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.

«المحافظة على الحياة وطلب امتدادها إلى قيام الساعة من تعاليم الإسلام، فقد رغّب فى الزواج لهذا الغرض، واستحب أن يكون الزوجان آباء، وأن يكون لهم بعد الأولاد أحفاد ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ..﴾[1].

والزواج فى الإسلام حالة تعبدية وقربى إلى الله سبحانه وتعالى:

«وأغلب الفقهاء يجعل الزواج عبادة من العبادات، ويجعل نفقة الرجل فى بيته صدقة تكتب له..»[2].

فى معوقات الزواج:

الإسلام دين سمح يواجه الحياة بحب وبساطة ونقاء، وينفر من التعقيد والإسراف والتعالى، ولذلك كان الزواج فى الإسلام مُيسَّراً حتى بلغ فيه قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«التمسْ ولو خاتماً من حديد»**[3]..

ولكن سنا هذه الصورة المشرقة اختفى تدريجياً!.. ومع انكماش التعاليم الإسلامية وغياب الوازع الدينى، وإحلال حكم الجاهلية الذى يعلو فيه مفهوم الغنى على مفهوم الخلق الرفيع، والنسب

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص١٠٢. والآية: ٧٢ من سورة النحل.
(٢) الحق المر: ٤/ ١١٧.
(٣) أخرجه البخارى ٧/ ٢٢، وأبو داود برقم ٢١١١ والترمذى برقم ١١١٤ عن سهل بن سعد. وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

العرقى على نسب الإسلام وأخوة الدين، ومع طغيان مواريث الجاهلية على تعاليم الشريعة، وقع الظلم فى معظمه على المرأة!..

ومن واقعنا العربى المؤلم يقدم شيخنا الغزالى جملة قضايا أساسية تعالج من أربابها بأثر سلبى لتسد المنافذ على الفتاة التى تبلغ سن الزواج تحت ذرائع الكفاءة.. ويعلم الله أنها محض تقاليد ومواريث عرفتها الجاهلية ومارستها.. فحاربها الإسلام!!.

لقد تتبع الشيخ الغزالى ـ كمصلح اجتماعى ـ هذه المعوقات من خلال ثقافته الواسعة وروحه الشاعرة، إضافة إلى كونه داعية يفرض عليه الاحتكاك بالناس، لتبدو النتيجة من خلال لقاءاته بالجمهور ومن مؤلفاته، بأن المرأة هى العنصر الأشد عرضة للظلم الاجتماعى من واقع الإفرازات الممتدة من تقاليد متهرئة ما زالت بعض مجتمعاتنا لم تتخلص من أدوائها.

بل.. ولكى يبتدعوا لها صيغًا شرعية فقد ألبسوها لباس الإسلام.

وفى هذا يقول الإمام الغزالى:

«لقد طفت فى أقطار إسلامية كثيرة، فرأيت سطوة العرف أقوى من سطوة الشرع، واتباع الهوى أهم من اتباع العقل.

وللناس قدرة عجيبة فى إلباس شهواتهم ثوب الدين، وتحقيق مآربهم الشخصية باسم الدين»(١).

(١) الطريق من هنا: ص ٤٣ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية / طبعة أولى (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) سلسلة ثقافتك الإسلامية.

وفى مؤلف آخر يتناول جانباً آخر لهذه المفاهيم البعيدة عن الإسلام. . القريبة من هضم حقوق المرأة لا سيما وهى تنطلق من تصريحات فقيه؟!:

«وقال أحدهم ـ وهو يشتغل بالفقه ـ: يجوز للقرشى أن يتزوج من يشاء من العرب أو العجم، أما القرشية فلا بد من مراعاة الكفاءة فى النسب.

قلت له: إن البيوت مغلقة على عوانس بائسات محرومات من الزواج، فهل هذا الكلام يحل مشكلاتهن؟ إن هناك أقطاراً واسعة من العالم الإسلامى تشقى فيها النساء؛ لأن التقاليد جعلت دمًا دون دم وأباً دون أب، أفهذا إسلام؟»[1].

عضل هنا.. وهناك زواج بأجنبيات!!

ونكاد نقرأ حلول هذه المشكلة من خلال إجابته اللماحة، وإن بدت فى قالب من السخرية اللاذعة!:

«والأسر الشريفة لها تقليد عجيب ـ أعنى الأسر التى تدعى الانتساب إلى البيت النبوى ـ فالمرأة تموت عانساً بائسة إذا لم يجئها الكفء من الأشراف، أما الرجل فله حق الزواج من الإنكليز والأمريكان!

ويظهر أن بنات العم سام أو چون لهن شرف يضارع شرفه، أما

(1) هموم داعية: ص ١٣٦.

النساء اللاتى نكبن بالدم الشريف فلا كفء لهن على المدى البعيد إلا بالموت!..»[1].

ومعوقات أخرى!

وفى الوقت الذى تحصد فيه المجاعات العالمية آلاف المسلمين.. كانت هناك آلاف بل ملايين الدنانير تنفق لغرض النفاق الاجتماعى والعرض الزائل.

يقول الداعية الكبير مشخصاً مثل هذه العلل الاجتماعية:

«ودرست أوضاع الزواج فى أغلب البلاد الإسلامية، فوجدت النفاق الاجتماعى المهيمن على السلوك: كم سيدفع لشراء الحلى والملابس، وكم سيدفع لإقامة الأحفال والولائم؟؟ كم سيدفع لتقديم الهدايا واقتناء الأثاث العصرى؟.

ثم هذا العريس المتقدم من أى القبائل؟ إذا لم يكن من الحزب النازى فلن يصلح لفتاتنا ولو كان مخترع الأقمار الصناعية..

الواقع أن أولى الألباب يحارون فى فهم شبكة التقاليد التى تسود عالمنا الإسلامى؛ وهم يوقنون بأنها بعيدة عن تقوى الله ورعاية المصالح..

إن الجماهير تغض الطرف عمداً عن مسالك للشباب قبل الزواج تذبح فيها أعراض، وتبيد فضائل، إلى أن يتيسر الزواج وفق المواصفات التى وضعها الشيطان»[2].

---

(١) مائة سؤال فى الإسلام: ٢/٢٥٦.

(٢) الطريق من هنا: ص ٤٤، ٤٥.

فى عالم المساواة!..

مكانة المرأة مساوية للرجل..

تعاليمنا الإسلامية الغراء جعلت المرأة مساوية للرجل فى التكاليف العبادية؛ لذا فهى مساوية له فى الحقوق، إذ كلاهما بشر له روح شاعرة وعقل مفكر وقلب يحب ويكره؛ لذا لا ينبغى لأحدهما التحكم فى الآخر أو اجتياح حقوقه، أو النظر إليه نظرة ازدراء وتعال.

وللأسف تتحول هذه المفاهيم فى مجتمعاتنا لتصبح واقعاً مأنوساً يجعل منزلة الرجل تتفوق على منزلة المرأة بأشواط.

بل ـ ولكى يبلغوا مآربهم ـ لا يهمهم تحريف الكلم عن مواضعه.

والشيخ الغزالى ـ الذى عُرف مفكراً ثائراً على الظلم، يرفض لأهواء النفوس أن تعلو حكم الشريعة، بل.. وتجعل البعض يحرف الشريعة وفقاً لمآربه ـ يثبت هذه المساواة بعمق لا يقبل السفسطة: «ومصيبة ديننا فى أناس يحرفون الكلم عن مواضعه، ويطيرون بحديث موضوع أو معلول ليبلغوا به الآيات البينات والسنن الثابتات البينات..

إن الذى يتدبر القرآن الكريم يحسّ المساواة العامة فى الإنسانية بين الذكور والإناث، وأنه إذا أعطى الرجل حقاً أكثر فلقاء واجب أثقل، لا لتفضيل طائش»(١).

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ٣٥.

إن ميزان التقى فقط هو معيار المفاضلة بين الجنسين كما أوجب الله، وبذلك قطع الطريق أمام هذا الفكر المتعصب والنظرة الجائرة نحو المرأة..

والمساواة بين الجنسين تقوم على أكثر من محور.. بيد أن بعضها يلقى رفضاً حاداً من أهل الحديث، على أن الأستاذ الشيخ وهو أحد مجددى القرن الخامس عشر الهجرى، يعتمد آراء الفقهاء فيما يثرى رأيه، إن لم يجد فى القرآن الكريم أو السنة المطهرة نصاً قاطعاً.

وقد يختلف مع بعضهم.. ويكون له رأيه الخاص كإمام فقيه، فالمجتهد لا ينكر رأى مجتهد مثله فى مسألة تحتمل أكثر من رأى.. وهو يجتهد ليعيد حقاً ضائعاً سببه حديث ضعيف.. أو مُحرَّف!.

فى دية المرأة..

يقول الأستاذ الفقيه:

«وأهل الحديث يجعلون دية المرأة على النصف من دية الرجل..»(١).

فيصرح فى هذا: «رفضها الفقهاء المحققون» فالدية فى القرآن واحدة للرجل والمرأة، والزعم بأن دم المرأة أرخص، وحقها أهون زعم كاذب مخالف لظاهر الكتاب.

---

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص ٢٥، ٢٦.

إن الرجل يُقتل فى المرأة كما تُقتل المرأة فى الرجل، فدمهما سواء باتفاق، فما الذى يجعل دية دون دية؟»(١).

وحول مثال طُـبِّق فى باكستان يقول:

«وقال الأستاذ معروف الدواليبى إنه عندما كان يشارك فى وضع القوانين فى باكستان على أساس الشريعة الإسلامية سوّى فى الدية بين الرجل والمرأة؛ إيثاراً للرأى القائل بذلك، واستئناساً بمسلك عثمان بن عفان الذى أكمل دية الذمى وكانت على النصف من دية المسلم..

قال: رأينا أن نسد الطريق على من يتهمون الإسلام بإنقاص مكانة المرأة»(٢).

ومن باب الاجتهاد الدينى يرى رأيه:

«إن اختلاف وجهات النظر ـ كما أسلفت ـ مأنوس فى تراثنا، مقبول فى مسالكنا، مأجور عند الله سبحانه، خطأ كـان أو صـواباً، فلا مساغ لجعله حجر عثرة فى طريق الدعوة أو طريق المصلحة!! وإن كان عويل الصغار يشتد كلما رأوا ما ألفوه مؤخراً أو مهجوراً.

وقد اخترت أن دية الرجل والمرأة سواء، وتابعت فى هذا شيوخى الذين تلقيت العلم عنهم أمثال محمد أبو زهرة، ومحمود شلتوت، ومحمد حسنين مخلوف، وغيرهم..

---

(١) و (٢) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص ٢٥، ٢٦.

كان رائدى فى هذا الاختيار دحض القول بأن الإسلام يحتقر المرأة ويرخص دمها»[1].

ويستطرد فى دفاعه عن رأيه:

«لم يذكر القرآن هنا أن دية المرأة[2] على النصف من دية الرجل، الآية عامة فى الرجل والمرأة، وليس هناك مخصص لهذا العموم، لا آية قرآنية ولا حديث نبوى صحيح؛ لذلك يجب أن يبقى العموم على عمومه»[3].

ولمن شاء متابعة الأدلة التى يقدمها الشيخ الغزالى حول الموضوع فلينظر كتابه «تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل» ص ١٣٥ - ١٣٧ . دار الشروق (١٩٩٦م).

حقها فى الإرث..

فى سعير المادة تُجتاح الحقوق.. وترتفع ذوائب الظلم.. وتموت الضمائر.. ويتحرك ما خمد من براكين الأطماع، خصوصاً إذا تعلق الأمر بأموال طرف ضعيف فى مجتمعنا.. كالمرأة!!.

وظلم المرأة فى إرثها قضية تكاد تكون عامة، إذ يندر أن تتمتع بهذا الحق كاملاً.

وللشيخ الغزالى آراؤه الجريئة التى تعرى مثل هذه المجتمعات وتلهب ظهرها بسياط الحق علّها ترعوى!:

(١) و (٣) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل: ص ١٣٦.
(٢) يقصد سورة النساء: الآية ٩٢.

«إن المجتمع الذى يهين النساء، ويقلل من شأنهن، ويستبيح حقوقهن المادية والأدبية مجتمع أنانى ظلوم بعيد عن تقاليد الإسلام ووصاياه، وكذلك المجتمع الذى يجور على المستضعفين الذين لا شوكة لهم ولا يستطيعون دفاعاً عن أنفسهم !

إن الله سبحانه أمر بالعدل والرحمة، ووصى بالإحسان والفضل، وأقام الأمم على التكافل الكريم، وعلى أن يتنفس الصغار والكبار فى جو إنسانى رفيع، وقال للناس بعد ذلك:

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً ﴾ [النساء: ١٢٧](١).

وعاب الشيخ الغزالى شطط البعض ـ بسبب أكلهم أموال النساء بالباطل ـ فى خضوعهم لمواريث الجاهلية أكثر من خضوعهم لأوامر المولى سبحانه وتعالى:

«من مآثر الجاهلية الأولى أنها كانت تزدرى وتصادر حقوقها وتهمل شئونها، وتفرض عليها أن تعيش فى زاوية من الإهمال والخمول. ويظهر ذلك بوضوح عند تقسيم المواريث: فإذا الرجال يذهبون بالمال كله ولا يبقى للزوجات إلا الثكل والأحزان!

والغريب أن تقاليد الجاهلية القديمة لا تزال حية فى ضمائر البعض، فهم يضنون على البنت بأخذ نصيبها لا سيما إذا كانت متزوجة، ويقولون لها: تذهبين بمال الأسرة إلى الغرباء! . فإذا كانت لم تتزوج خلطوا مالها بأموالهم تمهيداً لأكله بالباطل! . وهذا

---

(١) الحق المر: ٤/ ١٧٢.

كله فسوق عن أمر الله، ورغبة فى رد النساء إلى الجاهلية التى حررهن الإسلام منها»[1].

وفى توجهه لإعادة حق يسلب، أوضح شيخنا الغزالى موقف الإسلام من مسألة ميراث المرأة، وخرج بتحليلاته وأدلته لتأخذ مسارها فى المساواة، تحت جنح الشريعة:

«ومما يتصل بمعنى المساواة أن نشرح موقف الإسلام من المرأة.. وهل صحيح أن الدين جعلها أقل رتبة وأنزل مكانة من الرجل؟ إن الذين يذهبون إلى هذا الزعم يستشهدون عليه بأن الإسلام جعل نصيب الرجل فى الميراث ضعف نصيب المرأة، كما جعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل.

والحق أن هذا الاستشهاد مغالطة، فإن الإسلام لو لم يجعل نصيب المرأة فى الميراث نصف نصيب الرجل لاختل نظام المساواة، ولأصبحت كفة المرأة مادياً أرجح..!!.

ذلك أن الرجل مكلف فى الإسلام بالإنفاق على المرأة، ويسوق المهر لها إن أراد الزواج، ومعنى ذلك أن ماله سوف يستهلك فى الواجبات التى كلف بها، على حين يجمد مال المرأة فلا ينقص..!! فلا أقل من استدراك هذه الحالة بزيادة نصيبه من الإرث. فهذه الزيادة ليست تفضيلا أدبياً.. وإنما هى تعويض مادى بحت..!!»[2].

---

(١) الحق المر: ٤/ ١٧١.

(٢) هذا ديننا: ص ٤٩ دار الشروق ـ طبعة رابعة (١٤١٦هـ / ١٩٩٦م) القاهرة.

ويحمل الشيخ الأستاذ على سماسرة الغرب وصنائعه، فى محاولاتهم ضرب الإسلام بإلغاء الشريعة، لكأن القوانين الوضعية التى تحكم ـ فى معظمها ـ أمتنا لا تفى بأغراضهم الماكرة حتى يستأصلوا جذورها فى محاولة إخضاع قانون الأحوال الشخصية أيضاً للنظام الغربى وجعله أساس الحكم.

يقول الأستاذ الشيخ:

«وقد كتبت امرأة تحمل اسماً إسلامياً أن تغيير شرائع الزواج والطلاق والحضانة مع تمهيد لتغيير شرائع الميراث نفسها ليتساوى الرجال والنساء فى أنصبتهم، وبذلك تمحى معالم الإسلام كله فى عالم القانون»(١).

وعضّد هذا الاستحماق شخصية تدّعى الإسلام، لها من الجرأة على تعاليم الإسلام رصيد ضخم حتى استحقت الطرد من رحمة الله، ثم المجتمع من أوسع الأبواب!.

ونحسب أن سموم تفكيرها استقرت فى المجارى الآسنة، بعد ما كان يأمل صاحبها استقرارها فى فكر المسلمين وكيانهم.

وكما فضح العلماء من ذوى الغيرة الدينية مخططه البعيد الأثر، فقد نال هذا «الكويفر»(٢) بسموم فكره الطائش سخرية الشيخ الغزالى اللاذعة..

---

(١) هموم داعية: ص ٩٧ دار البشير ـ القاهرة، ط ثانية ١٤٠٥ هـ.

(٢) الحق المر: ٦٣/٥.

ومن فصل ضمن كتابه «الحق المر» بعنوان «عتمة فى العقل»: «يشرح الدكتور مراده فيقول: إن الإسلام بدأ تحرير المرأة وأعطاها نصيباً من الميراث لم تكن تناله، فيجب المضى مع هذا الاتجاه، وتسوية المرأة بالرجل فى الميراث احتراماً للواقع الجديد.

وعبارته هى «ليس من المقبول أن يقف الاجتهاد عند المدى الذى وقف عنده الوحى؛ وإلاّ انهارت دعوى صلاحيته لكل زمان ومكان».

يبدو أن الشارع وافاه الأجل قبل إنصاف المرأة بالمساواة الكاملة فلنكمل نحن ما قصر فيه!!»[1].

إن المساواة نأخذها من اجتهاد فقيه اعتمد كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا عبر أفكار ملاحدة وسماسرة مأجورين اعتمدوا الغرب مذهباً وديناً!!.

مساواتها فى اختيار الزوج!

ومع أن طاعة الوالدين لها من الخصوصية ما نعلم، بيد أنها لا تلغى شرعاً أمام رفض الفتاة إنساناً تعافه نفسها.

فالاختيار منحة سماوية كرم الله تعالى بها المرأة؛ لذا فليس لأحد حق مصادرتها أو تجاوز حدودها تحت أى ظرف.

ولقد عول الأستاذ الغزالى على هذا الحق الإلهى كثيراً، فرأى أن التوافق النفسى والانسجام الروحى شرط أساسى للقبول من أجل استقامة الحياة الزوجية وامتدادها وقطف ثمرتها، وأن أى ضغط

---

(١) الحق المر: ٥/٦٣.

من قبل الأبوين أو ولـى الأمر لإرغـام الفتـاة علـى الاقتران بمن تكره ـ بسبـب المصالح أياً كانت دوافعها ـ كمن يقيم بيتاً على جرف هار.

لقد حاول شيخنا الغزالى وقف مسلسل الحقوق المنتهكة.. يزيح الستار عن خفايا المشاعر الإنسانية وتأثرها سلباً أو إيجاباً أمام الحدث!.. ورأى أن أفضل البيوت ما تبنى على أساس من الكفاءة الوجدانية والفكرية كى تثمر أسرة ناجحة تصمد أمام العواصف التى تهب عليها لسبب ما «فتمر دون أن تخلف دماراً أو أثراً ذا بال» وهو ـ رحمه الله ـ فى دفاعه عن أهمية حقوقها النفسية لكأنه يتساءل: ترى ما قيمة زيجة يفرح لها ولى الأمر لقاء مصلحة ما، تشقى فيها فتاته وتعود بعدها حزينة مهيضة الجناح.. أو تبقى سجينة حيث دفع بها لتبتلع دموعها وقهرها بصمت بعيداً عن أى إنسان لا يحس بعذابها.. وقد يكون زوجها!!.

وبنور قلبه الذى يقترب من كشفه لطوايا النفس يعالج أحلام وآمال الفتاة فى اختيار شريك حياتها ضمن استلهامه السنة النبوية الشريفة لافتًا إليها أنظار الأولياء:

«وفى سبيل رفع قواعد الأسرة وتثبيت دعائمها شرع الإسلام هذه المبادئ العظيمة:

الزواج رباط حر بين طرفين كاملى الإرادة، فلا الرجل يُكره على أخذ من يكره، ولا الفتاة تُرغم على قبول من تبغض.

وقد يحدث أن تُستضعف البنت وتزوج من لا رغبة لها فيه، هنا يحكم الإسلام بأن هذا الإكراه لا قيمة له.

روى عن خنساء بنت حذام الأنصارية أن أباها زوَّجها - وهى ثيب - فكرهت، فأتت رسول الله فرد نكاحها (البخارى).

وروى أن جاءت جارية بكر إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فذكرت أن أباها زوَّجها وهى كارهة، فخيَّرها النبى - صلى الله عليه وسلم - بين القبول والرفض (أحمد).

إن الدين لا يكبت مطالب الفطرة، ولا يصادر أشواق النفس إلى الرضا والراحة والبشاشة، وللإنسان عندما يقرر الزواج أن يتحرى عن وجود الخصال التى ينشدها، وأظن ذلك حق المرأة أيضاً فيمن تختاره بعلاً..

فإن صدق الخُبر الخَبر صح الزواج وبقى، وإلا تعرض مستقبله للغيوم»[1].

«إن الزواج ليس نزوة عابرة! إنه صحبة دائمة وميثاق غليظ وشركة فى حياة لا تتحمل هزلاً ولا عبثاً، فما ارتبط به الزوج أو الزوجة من شروط لا يسوغ فيه تحريف ولا تقصير»[2].

«وهناك رجال يحسبون أن لهم حقوقاً، وليست عليهم واجبات، فهو يعيش فى قوقعة أنانيته ومآربه وحدها غير شاعر بالطرف

---

(١) هذا ديننا: ص ١٥٣ دار الشروق / القاهرة (١٩٩٦م).

(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٢٧، ١٢٨.

الآخر، وما ينبغى له! والبيت المسلم يقوم على قاعدة عادلة ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾ [٢٢٨ البقرة] وهى درجة القوامة أو رياسة هذه الشركة الحية..! وما تصلح شركة دون رئيس»[١].

والرغبة وحدها.. لا تكفى!

وفى ظل حرية الزواج وحرية الاختيار، يرى الشيخ الغزالى أن رغبة الأهل فى تزويج فتاتهم لا تعنى إكراهها على الزواج إن لم تقدر على تكاليفه.. وهى بذلك تقف مساوية للفتى وفقاً للشريعة: «إذ إن الوظيفة الاجتماعية للبيت المسلم تتطلب مؤهلات، وهذه المؤهلات مفروضة على الرجل وعلى المرأة معاً، فمن شعر بالعجز عنها فلا حق له فى الزواج»[٢].

«ومن الطرائف ما رواه أبو سعيد الخدرى أن رجلاً أتى بابنته إلَى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: إن ابنتى هذه أبت أن تتزوج. فقال لها رسول الله: «**أطيعى أباك!**»[٣]

فقالت: والذى بعثك بالحق لا أتزوج حتى تخبرنى: ما حق الزوج على زوجته؟

فحدثها النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ **أنه لو كانت به قرحة فعالجتها بفمها ما زادت عن واجبها!..**

---

(١) و(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٢٧، ١٢٨.

(٣) أخرجه البيهقى فى السنن ٧/ ٢٩١ والحاكم فى المستدرك ٢/ ١٨٨ ومجمع الزوائد ٤/ ٣٠٧.

قالت: والذى بعثك بالحق لا أتزوج أبداً..

فقال النبى: «**لا تُنكحوهن إلا بإذنهن**»[(١)] ..!!

إن هذه الفتاة أنصفت نفسها ولم تتعرض لتكليف يصعب عليها أن تقوم به. وليس لأحد أن يكرهها على ما تأبى، وتمريض الرجل لامرأته له هذه المكانة ذاتها؛ مصداق قوله تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾. [البقرة: ٢٢٨].

ولن نفهم أطراف القضية إلا إذا علمنا أن البيوت تبنى على الحب المتبادل.

ومنطق الحب الشريف يعطى من الوفاء والولاء ما لا تعرفه القوانين التجارية والمبادلات النفعية!! وما أكثر ما يفتدى الرجل بيته بحياته وتفتدى المرأة بيتها بحياتها..

وما نقوله بالنسبة إلى المرأة نقوله بالنسبة إلى الرجل، فالعاجز عن أعباء الأسرة المادية والأدبية لا يجوز أن يتزوج، وليسمع نصيحة الرسول الكريم: «**من لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**» أى: قاهر لغريزته[(٢)].

---

(١) انظر الهامش رقم (٣) ص١٧٤.

(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٢٨، ١٥٨. والحديث أخرجه أحمد ٣١٨/١، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٣٢ والطبرانى فى الكبير ١٥٠/١٠ وفتح البارى ١١٩/٤.

ولها حق.. عقد زواجها..

للمسلم حق اختيار مذهب معين فى مسألة أو رأى عندما يتعلق الأمر بالدعوة الإسلامية والعمل على نشرها بين صفوف الأديان الأخرى كسلعة نفيسة تستحق عرضها بأجمل صورة ، سيما إنْ تعلق الأمر بأوضاع المرأة التى يرى الغرب أن الإسلام قد غمطها حقها وتركها تعيش ذليلة منقادة من خلال فكر الرجل والدوران فى فلكه وتحقيق رغباته ليس إلا!..

إنه حصاد حقب من عروض سيئة أُلصقت بالإسلام من المنتمين إليه، فساعد على صدود طلاب الحق وغلق أبوابه الرحبة فى وجوههم.

وهذا ما يأسى له الدعاة كالإمام الغزالى ليتساءل بحزن يخالطه الغضب:

«فلحساب من يتحدث بعض الناس عن الإسلام ويصورونه بعيداً عن مقررات الفطرة وأشواق الإنسانية الكاملة؟.

ولحساب من يعلو صوت الإسلام فى قضايا هامشية ويخفت خفوتاً منكراً فى قضايا أساسية؟ ولحساب من يرى بعضهم الرأى من الآراء، أو يحترم تقليداً من التقاليد ثم يزعم أن الإسلام الواسع هو رأيه الضيق، وأن تقاليد بيئة هى توجيهات الوحى، وبقايا التعاليم السماوية على الأرض؟»[1].

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٢٨، ١٥٨.

ويمضى الأستاذ الداعية مع هذه الثلمات التى يراد حشوها قسراً فى ديننا:

«إن أى كلام يفيد منه الاستبداد السياسى، أو التظالم الاجتماعى أو العطن الثقافى أو التخلف الحضارى لا يمكن أن يكون ديناً، إنه مرض نفسى أو فكرى ، والإسلام صحة نفسية وعقلية..

كنت أناقش رجلاً كندياً يسائلنى بضيق عن موقف الإسلام من المرأة. فجاء فى حوارى: المرأة حرة فى اختيار زوجها، ولا يمكن إكراهها على قبول من تكره ، ولها أن تباشر عقدها أو توكل فيه كما تشاء..

وكان هناك من يرقبنا وهو ساخط ، وحمدت الله أنه لاذ بالصمت! فلما انتهى الحوار اقترب منى المعترض المؤدب قائلاً : لا يجوز أن تباشر المرأة عقدها، بل الدين ضد هذا.

قلت له : رأيك ضد هذا، قلّدت فيه بعض المذاهب الفقهية، ورجّحتُ أنا وجهة النظر الأخرى. واعتقدت أنها أقرب إلى عقول الأوروبيين والأمريكيين ، والعمل عليها يجرى فى أقطار إسلامية محترمة، ومن مصلحة الإسلام أن تتسع دائرة هذه الأقطار..

إنّ شراً مستطيراً يصيب الإسلام من تقوقع بعض أتباعه فى آراء فقهية معينة شجرت فى ميدان الفروع، ويراد نقلها من مكانها العتيد لتعترض عقائده، وقيمه الكبرى.

والرجل الذى يخسر السوق كلها لأنه يفضل دكاناً على دكان وسمساراً على سمسار لا يسمى تاجراً»[1].

(١) قضايا المرأة: ص ١٥٩.

ولولىٍّ الأمر فسخه:

إن حرية زواج الفتاة فى الإسلام تخضع لمشروطية حسن الاختيار، وذلك من أجل المحافظة عليها.. ولولى الأمر حق التدخل فى حالة جنوحها وما يترتب عليه من مآس فى حق أهلها ونفسها، يرى الأستاذ الغزالى:

«لكن للآباء ، والأولياء عموماً حق الاعتراض على العقد إذا أساءت الفتاة التصرف فى نفسها بأن قبلت الزواج من أفاك، أو رقاص، أو محتال، وكثيراً ما تقع البنات الأغرار فى شرك هؤلاء الدجالين.

إن الإسلام أباح للنساء أن يتصرفن فى حدود المعقول: ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ومناط الكفاءة المعتبرة: الدين والخلق لا النسب أو الثروة»[1].

معادلة.. فى الطلاق:

هذه إحدى القضايا التى تشكل حساسية وأهمية بالغة فى حياة المرأة ؛ لما يترتب على ما بعدها. وقد تناول الإمام الأستاذ هذه القضية (الطلاق) لا من باب النهضة النسائية التى اتخذت المرأة العربية من قوانين الغرب مثلاً أعلى لها.. فى الوقت الذى تتحايل فيه المرأة الغربية للحصول على وثيقة الطلاق!!.

(١) هذا ديننا: ص ١٥٣ . والآية رقم ٢٣٤ من سورة البقرة.

هذا العلاج يصفه الغزالى من حيث موقعه الإسلامى الذى يمنح المرأة من الحقوق ما يقارب ما منح الرجل ، فإذا كان للرجل حق الطلاق. . فإن للمرأة حق الخلع!!.

وفى هذا الدفاع يثير الشيخ الغزالى حقاً منسياً:

«إن المجتمعات فى الشرق والغرب اعترفت بأن الطلاق قد يكون ضرورة نفسية واجتماعية، وأنه ليس سوطاً فى يد الرجل ، بل قد يكون فكاكاً لإسار المرأة»(١).

وإذا أُسيء استعمال هذا الحق فاستغل بعَضْل المرأة مثلاً: «والمقصود بالعضل إساءة العشرة حتى يتحول البيت إلى سجن تحاول المرأة الخروج منه بردّ المهر الذى أخذته من قبل!!»(٢) ففى هذه الحالة يكون من حقها الخلع لتنهى عقد الزوجية وتتحرر من أغلال زيجة غشيتها ظلمة طمست حقوقها النفسية.

من حقها الخلع..

والداعية الغزالى الذى عرف بإنصاف المرأة كما أراد لها الإسلام، ورفع الحيف عنها ما وسعه حتى آخر مؤلفاته ـ رحمه الله ـ يقول فيه:

«وقد رأيت أن أجهزة التبشير ترقب العالم الإسلامى بمكر، وتحاول اختراقه من ثغرات تتوهمها أو تجدها، وقد رأت أن أعداداً

---

(١) قضايا المرأة: ص ٥٩.

(٢) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم: ١/ ٤٩.

من المسلمين تهين النساء، وتستكثر عليهن ما آتاهن الشارع الحكيم فسعت إلى تنصير المرأة وإشاعة أن المراد إنقاذها من جور الإسلام!!

وتوجد الآن جمهرة من المثقفات وقعن فى هذا الشرك ، والسبب الأول أن بعض المتحدثين فى الدين من الجاهلين والتافهين..

كنت فى أحد المجالس فقلت : إن حق الخلع للمرأة يكافئ حق الطلاق للرجل.. وإذا وجدت امرأة لا تطيق زوجها بغضاً لأسباب تبديها أو تخفيها، وعرضت أن تعطيه ما ساق إليها من مهر فما المانع أن يجيبها القضاء إلى ما تبغى؟

قال أحد السامعين: للقاضى حق التطليق للضرر! قلت: هذا شىء آخر ، إنها لم تشك ضرراً، وإنما تذكر أنها تكره البقاء مع رجلها لأمر ما، وتريد تعويضه عن كل ما أنفق عليها، فلماذا نبقيها معه؟ قال: هذا لا يجوز ما دام الرجل راغباً عن الطلاق! قلت: بل هو جائز وللقاضى أن يتصرف بالصلح أو بالخلع.

وعلمت - بعد - أن الرجل يتهمنى بما أنا منه براء؛ لأنه غير فقيه فى الكتاب والسنة ؛ وويل للعالم من الجهال.

الاتجاه عند بعض المتدينين إنكار أن تكون للمرأة شخصية متميزة، مع أن القرآن قرر أن امرأة نوح غير نوح، وأن امرأة فرعون غير فرعون، وأن لكل مسلكه وسيرته ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ..﴾[1].

(١) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم: ٢١/١. والآية رقم ١٥ من سورة الإسراء.

بيت الطاعة اجتهاد خاطئ!:

«مع ثبوت الخلع فى الكتاب والسنة ، فقد رأيت جماعة من المشتغلين بالفقه يتجاهلونه، ويرفضون إنهاء عقد الزوجية به سواء بالفسخ أو بإيقاع الطلاق، وبعضهم يدخله فى الضرر، ويأبى أن يكون لمشاعر البغضاء عند المرأة وزن.

وقد عاصرت عهدًا كان القضاء «الشرعى» يأمر بإرسال شرطة إلى أسرة الزوجة لإرغامها على الذهاب إلى بيت الطاعة كى تعاشر زوجها، وكانت الأسرة تقوم بتهريب الزوجة إلى مكان بعيد فراراً من تنفيذ حكم القضاء..!.

وكنت أسأل نفسى: هل هـــذا هو تفسيرنا لقـــول الله سبحـــانه: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾ [البقرة : ٢٣١]؟.

إن من أبغض الأمور عندى تعريض الإسلام كله للرد والجحد بسبب اجتهاد خاطئ أو تعصب مذهبى ضيق!»(١).

الخلع.. ثابت فى السنة!

وفى حق خلعها، وعدم إكراهها على من لا تحب العيش معه دفعاً لتصعيد موقف قد يمتد حتى ليُخشى على إيمانها، يضرب الأستاذ الغزالى مثالاً من صفحات السنة المطهرة فى الصحابى ثابت

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٧٨.

وزوجه بريرة: «إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما رقّ لزوج بريرة وقدر محبته لها، ذهب إليها يحدثها فى أن تعود إليه! فسألته: جئت آمراً أم شافعاً؟ قال: جئت شافعاً! قالت: فلا أعود! ولم يتهمها النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى دينها ولا فى طاعتها لله ورسوله..

وامرأة ثابت بن قيس لم تتهم زوجها بأنه يشتمها أو يضربها أو يضيق عليها، وإنما شكت بأنها تكرهه وحسب، فما معنى الزوجية والحالة هذه؟.

وما دخل رجال الشرطة هنا؟.. وكيف يحكم الإسلام باستبقاء الزوجة فى بيت تعده سجناً، وتعد صاحبه شخصاً بغيضاً؟.

وإذا قدمت ما أخذت من مال فداء لنفسها فَلِمَ لا يؤخذ منها وتسترد حريتها؟»[1].

«إن الإسلام دين العدالة والمرحمة، ومن تصور أنه يأمر باسترقاق الزوجة والإطاحة بكرامتها فهو يكذب على الله ورسوله»[2].

ويبقى الفقيه الغزالى يرق للزوجة التى يكرهها زوجها على الخلع لما فيه من ضرر نفسى ومادى فيذهب ليستنبط من أحكام الشريعة الإسلامية السمحة ما يعيد لها حقاً يراد سلبه.

«ولا يجوز للرجل أن يحرج زوجته ليكرهها على طلب الخلع، أى: يُسىء عشرتها لتطلب الفكاك من أسره بأى ثمن، قال الشيخ

(١) و (٢) قضايا المرأة بين التقاليد: ص ١٧٩.

سيد سابق فى كتابه الجليل «فقه السنة»: يحرم على الرجل أن يؤذى زوجته بمنع بعض حقوقها حتى تضجر وتختلع نفسها، فإن فعل ذلك فالخلع باطل والبدل مردود ولو حُكم به قضاءً!.

وإنما حرم ذلك حتى لا يجتمع على المرأة فراق الزوج والغرامة المالية، قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ** ﴾[1]. العضل: التضييق والمنع. [والآية ١٩ من سورة النساء].

وليس من حقها الخلع:

وكما ينبه شيخنا الغزالى إلى حقوقها ويكره لها الظلم، كذلك يبسط ما عليها من حقوق تلتزم بتأديتها لتكون جديرة بالرحمة الربانية، ومن يقفهم للذود عنها:

«أما أن تطلب الزوجة الخلع لغير علّة إلا البطر والأثرة فهذه جريمة، وفى الحديث: «**أيما امرأة اختلعت من زوجها من غير بأس لم تُرَح رائحة الجنة**». وفى رواية لأبى هريرة: «**إن المختلعات هن المنافقات**»[*]!.

فلنعرف طبيعة شريعتنا، وليكن وعينا بأحكامها صوناً لحياتنا الخاصة والعامة»[2].

---

(١) و (٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٨٠.

(*) الترغيب والترهيب ٣/ ٨٤، وابن عدى فى الكامل ٣/ ٩٨٦.

الطلاق بين شريعة السماء.. وقانون الأرض!..

ككل الشيوخ والعلماء الحكماء حاول الأستاذ الغزالى جهده العمل على إيقاف نزيف الطلاق، ومنذ الطلقة الأولى التى تعتبر «وقفاً للعلاقات الزوجية لا حسمًا لحبالها..»[1] كما تحدث عن آدابه وكيف أن طبيعة الإسلام شديدة الحرص على مزج التشريع بالتربية الأخلاقية، والأحكام العملية بالآداب النفسية، كما تحدث ـ رحمه الله ـ بإسهاب عن حقوقها وصيغ حمايتها ـ فى حال وقوعه ـ فى أكثر من مؤلف أبرزها «كفاح دين» و«هذا ديننا» و«قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة»، و«نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم».

كما واساها بأن الطلاق لن يكون مصدر ظلم لها دائماً، بل قد يكون رحمة حين تخرج منه بفكاك أسرها!.

ومع مثالية منهج الإسلام ، فقد أُسيء استخدام حق الطلاق من قبل الرجل حتى دفع المرأة العربية لأن تسيء أيضاً، فقد «ولت وجهها شطر الغرب الآثم الذى ملأت الدنيا أرجاسه ، ولوثت الحياة أنفاسه!! وغرَّها ما منح المرأة هناك من حقوق ظاهرها إنصاف المرأة وباطنها إتلاف المرأة..»[2].

هذه المرأة فى بلادنا «تستحمق وتضع برنامج نهضتها فتكتب فى أول سطوره منع تعدد الزوجات.. وتقييد الطلاق!!»[3].

وكلا القرارين ليس من حقها.. فما أوجبه الشارع لا تقيده

(١) هذا ديننا: ص ١٦٢.
(٢) و (٣) من هنا نعلم: ص ١٦٩.

امرأة!! . . إنه محاولة لهدم الدين نحو السير فى طريق إباحية الفساد. ومع أن هذه الدعوة بدأت قبل تأليف كتابه «من هنا نعلم» فى مطالع الخمسينات بعقود عديدة إلا أن النغمة النشازِ ارتفع طنينها حتى كادت تفرضه واقعاً من خلال مؤتمرات عالمية فى أوائل التسعينات جمدت لوائحها أمام القوانين الربانية!! . .

ومن المفارقات ما يسوقه شيخنا الغزالى لنجد «فى الوقت الذى تحتج فيه المرأة المصرية على الطلاق الذى تكفله قوانين الأحوال الشخصية الإسلامية ، تحتج المرأة الإنجليزية على أبدية الزواج وتحريم الطلاق ، وقد تقدمت النائبة الإنجليزية «مسز هوايت» إلى مجلس العموم البريطانى أخيراً بمشروع قانون يقضى بإقرار الطلاق بين كل زوجين يطول حد الانفصال بينهما إلى سبعة أعوام»(١).

«لأن «أبدية الزواج» واستحالة الطلاق قد أصبحا مصدراً يغرق المجتمع كل يوم بأمواج الخطايا!! خطايا الأزواج الهاربين من القيد، والزوجات الباحثات عن الحرية ، وأبناء السفاح الذين يعولون أنفسهم بالجريمة»(٢).

«إن منع الطلاق إجراء يقع فى الغرب حيث يستطيع الرجل أن يبقى زوجاً صورياً لامرأة يتصل بغيرها وتتصل بغيره. وعلاج سوء التطليق هو رفع المستوى العلمى والخلقى، وإعادة الأمة الإسلامية إلى قواعدها الاجتماعية الأولى، وهى قواعد من أنبل وأشرف ما وعى التاريخ»(٣).

---

(١) و (٢) المرجع السابق: ص ١٧٠.

(٣) هذا ديننا: ص ١٦٥.

لقد تمرد الغربيون على أحكام الكنيسة التى تنشد فى الإنسان مثالية وكمالاً لن يتحققا مطلقاً أمام ضغوط النفس وحاجاتها، حتى أخضعوها لمطالبهم، وعندها لم يشذ فى ذلك أحد ملكًا كان أم صعلوكًا!.

الطلاق من حق الزوج:

والأستاذ الغزالى فى منهج دفاعه عن حقوق المرأة ليس مبعثه من باب تفضيلها.. كما لن يكون بظلم الرجل.. فكلاهما شطر الآخر، وإنما هو تأكيد للموازنة العادلة وإحقاق الحق من أجل إعلاء شريعة الله المقدسة التى لا ينبغى قط المساس بها بسبب ظلم بعض الرجال لبعض النساء!..

إن مسألة مطالبتها بتقييد الطلاق يخالف أحكامنا الشرعية.. إن استبدال شريعتنا بقانون وضعى سنه البشر وفق أهوائهم ومآربهم سيظلم الرجل والمرأة على حد سواء!.

«إن الطلاق من حق الزوج، ولن تستطيع شرطة القاهرة، ولا شرطة العالم أجمع إلقاء الرجل فى أحضان امرأة تنافى وده معها، وأجمع أمره على قطعها..

وليس من كرامة المرأة أن يسن قانون بهذا الوضع الشاذ»(١).

ويحسم الشيخ الغزالى رأيه فى هذه المسألة بشكل قاطع:

«إن القانون لا يصنع شيئاً حيث يكون المجال لقوة العقيدة، وحسن الخلق»(٢).

---

(١) و (٢) هذا ديننا: ص ١٦٥.

«ومن المستحيل أن نقبل كلاماً فى تحريم تعدد الزوجات من أناس قضوا أعمارهم مع مئات النساء، أو نسمع كلاماً فى تقييد الطلاق من هذا القبيل نفسه.

فإن النصح لله ورسوله، ووسائله وأهدافه...!!»[١].

طلاق لا يعتد به[٢]!!

ومن أجل ألا تظلم المرأة بجهل الرجل عند إرساله كلمة الطلاق جزافًا يرى الشيخ الغزالى: «هناك مواقف ليس من حق الرجل أن يرسل كلمة الطلاق على هواه.. وكثير من الفقهاء يرفض الطلاق إذا وقع على غير هذه الصورة ، كأن يطلق الرجل امرأته وهى حائض مثلاً.

إن هذا الطلاق حرام ولا يقع ، وسنده فى ذلك أنه أتى على غير الطريقة المشروعة.

«ومن أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ عليه» (مسلم) كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والغريب أن المسلمين لا يعرفون فى معاملاتهم إلاَّ طلاق البدعة هذا!!.

وجمهور الفقهاء على استنكاره، ولو أنهم اتفقوا على رفض آثاره لكان خيراً، ولكن فريقًا منهم للأسف يمضيه»[٣].

---

(١) هذا ديننا: ص ١٦٥.

(٢) وضح الغزالى ـ رحمه الله ـ أنواع هذا الطلاق فى كتابه «هذا ديننا» فصل (أخطاء التطليق عند المسلمين) ص ١٦٢ ـ ١٦٥ طبعة دار الشروق.

(٣) هذا ديننا : ص ١٦٤.

«وهذا المسلك حرام باتفاق العلماء ، وهو بدعة لا يعرفها الدين، وكان المفروض أن يرمى هذا الطلاق فى سلة المهملات وأن ينظر إليه كما ينظر إلى مسلك رجل غيّر نظام المواريث ووضع أنصبة جديدة من عنده».

«وقد تصدعت أركان الأسرة عقب الاعتراف بطلاق البدعة، ووقعت مهازل تثير الغثيان والأسى، فهذا رجل ينفق عند زواجه عشرات الألوف ، يبنى بامرأته ثم تسمعه فى السوق يحلف بالطلاق صادقاً أو كاذباً علّى رطل من اللحم يساوى دراهم معدودات ، وتنهدّ الأسرة»[1].

«وأعرف أن هناك من يحمر وجهه غضباً كى تبقى للطلاق البدعى مكانته العملية! ورضا هؤلاء أو سخطهم لا يعنينى.

إن اهتمامى الأول والآخر بتعاليم الإسلام ومصلحة المسلمين»[2].

«وما يتداوله العامة بينهم من أيمان الطلاق لا قيمة له..»

«إن عقد الزواج لا يتم إلا عن بصيرة وإرادة ، فكذلك إنهاؤه لا يتم إلا عن وعى وعزم. ولذلك ينبغى رفض أكثر ما يجرى على الألسنة من تطليق هو إلى اللغو أقرب منه إلى الحق».

ويلتقى الفقيه الغزالى مع فقيهنا الجليل «ابن تيمية» فى فتاواه ضمن هذه الدائرة، وأخذ عنه أيضاً.. ومع جانب من فتوى الإمام «ابن تيمية» فى طلاق اليمين:

(١) و (٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٨٧.

«وطائفة من العلماء قالوا: إن الحالف بالطلاق لا يقع به طلاق ولا تلزمه كفارة».

وقد ثبت عن الصحابة وأكابر التابعين فى الحلف بالعتق أنه لا يلزمه ، بل تجزئه كفارة يمين ، وأقوال الأئمة الأربعة بخلافه، فالحلف بالطلاق بطريق الأولى ، ولهذا كان من هو من أئمة التابعين يقول: الحلف بالطلاق لا يقع به الطلاق ، ويجعله يميناً فيه كفارة»(١).

«وهذا بخلاف إيقاع الطلاق، فإنه إذا وقع على الوجه الشرعى وقع باتفاق الأمة ، ولم تكن فيه كفارة باتفاق الأمة، بل لا كفارة فى الإيقاع مطلقاً، وإنما الكفارة خاصة فى الحلف، فإذا تنازع المسلمون فى مسألة وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول، فأى القولين دل عليه الكتاب والسنة وجب اتباعه ، كقول من فرق بين النذر والعتق والطلاق، وبين اليمين بذلك، فإن هذا هو الذى يدل عليه الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والقياس، فإن الله ذكر حكم الطلاق فى قوله تعالى: ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [الطلاق: ١] وذكر حكم اليمين فى قوله: ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ [التحريم: ٢](٢).

---

(١) ، (٢) فتاوى ابن تيمية ـ تقديم المفتى الأسبق محمد حسنين مخلوف : ١/ ١٨٥ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

نختار ما يحمى الأسرة من الضياع!

لقد حاول الأستاذ الغزالى ـ رحمه الله ـ البحث جهده ـ من خلال النص القرآنى والسنة النبوية، ثم آراء أصحاب المذاهب الفقهية واجتهاده الخاص ـ البحث عن أية ثغرة يمكن أن تحفظ الزواج ، وذلك بالتضييق على رقعة الآراء التى تحاول الإطاحة به.. ليكون المتضرر الأكبر نصيباً منها الزوجة والأبناء:

«إن انهدام بيت شىء خطير»(١).

وكم آلمه أن يبتر الزواج لقاء كلمة غير مسئولة تصدر عن عقول التبس فيها الحق بالباطل:

«هناك فقهاء تحسبهم متربصين لكلمة طلاق تقال أو تفهم أو تتوهم فإذا هم يحكمون على الحياة الزوجية بالموت ، كأنما يشتهون تمزيق الشمل وبعثرة كيان الجميع!»(٢).

ومن المعروف أن الشيخ الفقيه ـ باعتباره أحد رموز التجديد فى عصرنا ـ اختط لنفسه منهجاً ينفذ من خلاله فى تذليل العقبات التى تكتنف مشاكل الناس ، وهو الاستهداء بسنة رسولنا الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلما برزت مشكلة تنذر غيومها الداكنة لتغطى أفق الحياة الزوجية.

وفى ذلك يقول ـ رحمه الله ـ :

---

(١)، (٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٧٦ ، ١٨١ .

«عندما أرى بين الفقهاء خلافاً فى قضية ما، أنظر إلى أدلتهم نظرة محايدة ، ثم أرجح ما يقع فى نفسى أن دليله أقوى! غير ضائق بوجهة النظر الأخرى أو معترضاً الأخذ بها..

ومع النظر فى الدليل أهتم اهتماماً شديداً بأمرين: ما الأيسر على الناس؟ وما الأقرب إلى مصلحة الدعوة الإسلامية فى بلد ما أو فى عصر ما؟

وعندما أستبين الأيسر الذى لا حرج فيه أفتى به ؛ وقد اتهمنى البعض بتتبع الرخص، فلم أبال بالتهمة ! وقلت : بل أنا أولى بالسنة الشريفة «**ما خير رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثماً! فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه**»[1] ذلك ، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾. [الحج: ٧٨][2].

هذا النهج السليم يبرز بكثافة أقوى عندما تهدد الأسرة بالاقتلاع، لذا ينداح فى مجالات الاجتهاد الجماعى لا الفردى.

«وعندى أن شئون الأسرة فى هذه المجالات المفتوحة ، وأن الاختيار الحر من شتى المذاهب الاجتهادية أدنى إلى الحق ، وأَعْوَدُ بالنفع على الأمة، وإذا كان الطلاق أبغض الحلال إلى الله

---

(١) أخرجه أبو داود برقم ٤٧٨٥ .

(٢) تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل: ص ١٣٤ .

فأفضل ما نفعل أن نضيّق الخناق على الآراء التى توقعه لأدنى شبهة»[1].

الطلاق السنى أدعى:

وحول فتاوى الفقيه الشيخ «ابن تيمية» وترجيح الشيخ الغزالى لها فى قضايا الطلاق يقول:

«سألنى رجل: لماذا ترجح مذهب ابن تيمية فى رفض الطلاق البدعى وعدم الاعتراف بآثاره ؟ قلت : لأمرين : قوة دليله أولاً، ولأنه أرفق بالناس وأرعى للأسرة.

قال : دعنى من الأمر الثانى.. فقاطعته : كلا! إن المصلحة العامة لها دخل كبير فى قبول اجتهاد أو رفضه.! إن الله ـ تبارك اسمه ـ جعل من خصائص الحق الأولى أن ينفع الناس ، فقال:

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾.[الرعد: ١٧].

فلما رأيت اجتهاداً لإمام يتسبب فى متاعب نفسية أو اجتماعية، فمن حقى رفضه واستبدال غيره به من الآراء الإسلامية الأخرى.

وقبول الطلاق البدعى سبّبَ مخازى ومآسى كثيرة للأسرة المسلمة فما الذى يرغمنى على الارتباط به؟.. وهذه النظرة تطّرد فى عشرات القضايا الاقتصادية والسياسية.

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٨١.

مع إدراك أنه لا اجتهاد مع النص بداهة أو مع إدراك أن الاجتهادات المعتبرة تتجاوز الأئمة الأربعة على نحو ما سارت فيه موسوعة الفقه الإسلامى بالقاهرة . .

وما أكثر العقائد والعبادات والأخلاق المجمع عليها، فلِمَ نهجرها أو نهوّن من شأنها ونربط الدعوة الإسلامية بفروع قد تبقى وقد تذهب؟

أرى أن المسلمين فى الأعصار الأخيرة بحاجة إلى إدامة النظر فى ثقافاتهم المختلفة، أى: إلى الغذاء الفكرى الذى يقيهم مادياً ومعنوياً، وأذكر الحقائق الآتية إيماءً سريعاً إلى المقومات الأساسية لدعاة على مستوى الإسلام العظيم»[1].

التمتيع.. الحق المنسى!!

هناك قضية أخرى من قضايا حقوق المرأة التى تلقى العنت والغبن . . كما يهوّن من شأنها . . وفى بعض المجتمعات الإسلامية يسدل عليها ستار كثيف من التعتيم حتى تطوى! .

وهذا الحق الذى يعقب مأساة المرأة فى الطلاق، جملة حقوق أضحت مهملة فى دَيْدَن[2] الحرص على الدنيا جحداً لحقوقها. وبأصابع الحق يشير الغزالى:

«إننى أشعر أن أحكاماً قرآنية ثابتة أُهملت كل الإهمال ؛ لأنها تتصل بمصلحة المرأة ، منها أنه قلما نالت امرأة ميراثها وقلما استشيرت فى زواجها.

(١) مستقبل الإسلام خارج أرضه : ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) الديدن: العادة.

وبين كل مائة ألف طلاق يمكن أن يقع تمتيع مطلقة.. أما قوله تعالى : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤١] فهو كلام للتلاوة..

والتطويح بالزوجة لنزوة طارئة أمر عادى، أما قوله تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥] فحبر على ورق»[1].

إن المطالبة بحقوق الله فريضة ينبغى تتبعها دون كلل ، وخاصة إذا تعلق الأمر بالجانب الضعيف «المرأة» الذى ربما يجمع إلى ضعفه جهله بحقوقه.. حتى بات هذا الأمر منسياً!.. وفى آخر مؤلفات الأستاذ الغزالى أعاد التذكير بهذا الحق مؤكداً حرمته:

«ومن الشرائع التى نُسيتْ فى كثير من مجتمعاتنا شريعة المتعة! إن الطلاق يتم بعد معركة يكتنفها الغدر، والإعراض والجحود، وتحترق فيها المشاعر النبيلة ، وليس هذا ديناً، فقد يكون أبغض الحلال إلى الله الطلاق، وإذا وقع لأمر ما وجب كسر حدته بعطية حسنة، تطفىء الغضب وتمنع اللجاجة فى الخصام ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. [البقرة: ٢٤١ ، ٢٤٢] .

بهذه الوقفة النبيلة والمشاعر الساخنة فى إعادة حق مغبون للمرأة،

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث : ص ٥٤.

يقدم الشيخ الغزالى صوراً مازالت تعشش فى مجتمعاتنا ، كلّ من يتأملها بروية.. يحسن التفكير عندها لابد.. وينصف!..

تعدد الزوجات..

فى مبدأ التعدد!..

إن قضية تقييد التعدد والطلاق أرجف بها بعض المأجورين منذ دخول الاستعمار أقطارنا ، وقد تناول فضيلة الإمام الغزالى هذا المبدأ من خلال مؤلفاته ، أحدها «فقه السيرة» قائلاً: «أثار بعض الكاتبين غباراً حول مبدأ تعدد الزوجات، وحاولوا تقييد ما أباحه الإسلام من ذلك أو منعه..»[1].

وتمر سنوات طوال تمتد إلى ما بعد أحد عشر مؤلفاً له، ليثار الموضوع بأقلام صحفيين أيضاً فيرد عليهم الشيخ الغزالى فى كتابه «كفاح دين» حيث حمل بشدة على لجاجة أصحاب هذه الأقلام:

«والمسلاة التى يلجأ إليها الصحافيون فى الأيام الأخيرة، والتى تشبه أعراض المرض المزمن هى: (تعدد الزوجات وإباحة الطلاق).

ويظهر أن (السادة) الذين يحركونهم من وراء ستار يرون أن قوانين الأحوال الشخصية فى مصر هى آخر ما بقى من التراث التشريعى للإسلام.

---

(١) فقه السيرة: ص ٤٥٤.

ولذلك يجتهدون فى الإتيان عليه حتى ينفضوا أيديهم فى ارتياح من آخر حياة قانونية للإسلام»[1].

وإلى جانب الدين يحلل الشيخ الغزالى مبدأ التعدد وفق منظور يقترن بالأحوال الاجتماعية يقيّم من خلال خط بيانى نسب كل من النساء والرجال:

«فإذا كانت متساوية أو كان عدد النساء أقل، فإن تعدد الزوجات لابد وأن يختفى من تلقاء نفسه ، وستفرض الطبيعة توزيعها العادل قسراً.

ويكتفى كل امرئ ـ طوعاً أو كرهاً ـ بما عنده.

أما إذا كان عدد النساء أربى على عدد الرجال فنحن بين واحد من ثلاثة :

١ ـ إما أن نقضى على بعضهن بالحرمان حتى الموت.

٢ ـ وإما أن نبيح اتخاذ الخليلات ونقر جريمة الزنا.

٣ ـ وإما أن نسمح بتعدد الزوجات»[2].

ونلحظ فى الخيارين الأول والثانى أن التقاليد الشرقية والغربية تسهم بالجزء الأوفى من هذا الاعوجاج الدينى والفوضى الاجتماعية، يقول الشيخ الغزالى:

---

(١) كفاح دين: ص ١٩٧ دار البيان/ الكويت، ط رابعة (١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م).
(٢) فقه السيرة: ص ٤٥٤.

«إننى أشعر بمدى تسفّل الغرب عندما تطيح تقاليده بعفة فتيات لم يتجاوزن بضعة عشر عاماً من أعمارهن. وأشعر بمدى قسوة الشرق عندما تبقى نسوة أبكارًا فى بيوتهن وقد بلغن الخمسين والستين والسبعين..

أى دين يقبل هذه التقاليد أو تلك؟؟

التسول الجنسى فى الغرب محا قواعد الحلال والحرام، فاستبيحت الأعراض طواعية وكرهاً، وتقاليد الكبت عندنا عسّرت الزواج بعلل مفتعلة وبدأت تجرف الشباب إلى الفاحشة»[1].

«ونحن نعلم أن هناك من أساء استعمال حقه فى تعدد الزوجات، وإيقاع الطلاق.. ولكننا موقنون أن الأسرة لم تصب من ذلك إلا بخدوش، أو علل متداركة البرء.

أما الهدم الذى أصاب دعائم الأسرة فمن الفوضى الجنسية والخلقية التى زحفت علينا من الغرب.

ومن المستحيل أن نقبل كلاماً فى تحريم تعدد الزوجات من أناس قضوا أعمارهم مع مئات النساء»[2].

ويصف الإمام الغزالى أمثال هؤلاء الرجال المأجورين من صنائع الغرب بأنهم كانوا كارثة على المرأة:

«أفلح الاستعمار فى تكوين جيل يستحى من الانتساب للإسلام

---

(١) سر تأخر العرب والمسلمين: ص ٢٥.

(٢) هذا ديننا: ص ١٦٥.

ويكره أن يُرى وهو يقوم بشىء من شعائره ، خصوصاً بين المثقفين الكبار والطبقات التى تُهيأ للحكم والنفوذ.

الواحد من هؤلاء يحب أن يراه الناس خارجاً من حانة ولا يحب أن يروه خارجاً من مسجد.

ومن السهل عليه أن يوصف بأنه زنى بعشر نسوة ـ لكن وجهه يسودّ لو قيل : متزوج من اثنتين. . »[1].

هل أباحته الأديان؟

وحول سؤال وجه إلى فضيلة الشيخ الغزالى يتساءل صاحبه:

ـ هل من تكريم المرأة إباحة التعدد والطلاق، وجعلها نصف الرجل فى الميراث والشهادة؟. .

وكان الجواب:

ـ إن قضية تعدد الزوجات. . أريد أن أسأل أولاً: هل الإسلام يبتدع التعدد مخالفاً بذلك الأديان التى سبقته ؟ إن الأديان كلها ـ وثنية أو سماوية ـ أباحت التعدد ، فلماذا يُسأل الإسلام عنه ويؤاخذ به ؟.

ليس فى العهد القديم حظر على تعدد الزوجات، وقد جمع سليمان الحكيم ـ صاحب نشيد الإنشاد العامر بالغزل ـ ألف امرأة فى بيته بين حرائر وإماء!. .

---

(١) كفاح دين: ص ١٨٦ ، ١٨٧.

وليس فى الأناجيل التى كتبها تلامذة عيسى - عليه السلام - حظر على التعدد! إن التحريم الذى وقع بعد ذلك كان تشريعاً مدنياً لا دينياً، أو كان كنسياً يعتمد على الاجتهاد لا على النص! . . ».

«لماذا يراد قبول المرأة الأخرى خليلة لا حليلة؟ لماذا يرمى ابنها لقيطاً أو ينشأ زنيماً، ولا ينسب لأبيه الحقيقى؟»(١).

إنها أسئلة لا نشم منها سوى الدفاع عن حق المرأة ، والهجوم على رحمة الإسلام لها فى قضية التعدد.

لماذا يشغب علينا وحدنا؟!:

فى ظل الارتماء فى أحضان الغرب الذى يموج فى مستنقع التلوث الجنسى بسبب القوانين الوضعية المبتورة الصلة بوحى السماء، ترتفع أصوات نسائية تهاجم سنة الله فى التعدد، وتحاول إمضاء تقييده غير عابئة بأن «آلاف البيوت مغلقة الآن على فتيات ينتظرن الأزواج بصبر وأمل، بل بنفاد صبر وضعف أمل»(٢).

والأستاذ الغزالى لا يدع مثل هذا اللغو يمر دون أن يكشف عن أصالة الإسلام فى منحه المرأة مكانة رفيعة تنأى بها عن ممارسة السقوط الروحى والبدنى الذى تتقلب فيه المرأة الغربية ضاربة بتعاليم دينها ووصاياه عرض الحائط! :

---

(١) مائة سؤال فى الإسلام: ٢/ ٢٤٢ ، ٢٤٣.

(٢) كفاح دين: ص ٢٠٢.

«سمعت فتاة تهاجم الإسلام فى حفل كبير، وتعد تعدد الزوجات بأنه بغاء!.

وقلت للحفل المستمع : إن الأديان كلها ـ وليس الإسلام وحده ـ تبيح التعدد، ولم يقل موسى أو عيسى أو من قبلهما إن التعدد حرام، والذى يثير الدهشة أن الإسلام يُهاجَم لإباحته التعدد ـ بقيود معروفة ـ وأن الحضارة الحديثة لا تُهاجَم وهى تبيح الزنا واللواط، ولا تُهاجَم وهى تحبذ مراقصة الرجل لأنثى غريبة عليه، ولا تُهاجَم لأنها تركت الرغبة الحيوانية تنطلق على ظهر الأرض دون عائق. . !!»(١).

التعدد بين بابا الخلف.. وبابا السلف!

«إن الإسلام يُشتم لأغراض استعمارية دنيئة ، وقد استمعت إلى بابا الفاتيكان فى رحلته الأفريقية الأخيرة وهو يهاجم مبدأ «تعدد الزوجات» ويلمز ـ تلميحاً أو تصريحاً ـ الدين الذى يبيحه، فهززت رأسى فى صمت، ولكنى لم أستطع كتمان دهشتى وهو ـ بعد أن أعلن الحرب علينا ـ يدعو إلى السلام بين الناس.

أىّ سلام بعد نهب أراضينا وطىّ أعلامنا؟ . »(٢).

وفى لمز البابا لا أجد خيراً من كلمة للغزالى وردت فى هذا الفصل:

«لقد قرأت أن «ريشيليو» الكاردينال الفرنسى المشهور كان مريضاً بالزهرى! فهل جاءه المرض من كثرة الصلاة ؟ ونشرت مجلة

(١) و (٢) الحق المر: ١/ ١٣٠، ١٣١.

«النيوزويك» فى عددها الصادر فى ١/ ٧/ ١٩٧٤م أن أحد الكرادلة الكبار فى فرنسا مات فى أحضان إحدى العاهرات، ونشرت إحدى العاهرات مذكراتها فى فرنسا، فجاء بها أسماء ثلاثة بابوات وأحد عشر كاردينالاً. وقد نشرت «الديلى ميل» سنة ١٩٧٠م فى تحقيقات قامت بها، أن الإحصاءات تشير إلى أن ٨٠٪ من الرهبان والراهبات يمارسون الزنا، وأن ٤٠٪ منهم يمارسون علاقات شاذة فهل هذا الوضع أزكى وأفضل من العلاقات الطبيعية التى يقررها الإسلام؟»(١).

يبدو أن الشغب علينا مثابة يكافئ عليها أصحاب الديانات الأخرى.. وإذا أباح البابا لنفسه حق مهاجمة الإسلام لتمسكه بالأجواء الأسرية النظيفة، فلماذا لا يشغب على أسلافه «وقد أباحه البابوات لبعض الملوك بعد دخول الدين المسيحى إلى أوربا كشارلمان ملك فرنسا، وكان ذلك بعد الإسلام»(٢).

بين الكنيسة وجمهورها:

إن للدين الإسلامى خصوصيته أمام كافة الأديان.

لقد أثبت قدرته على تخطى كافة الأزمنة، وحميميته الشديدة لكل الميادين العلمية المتطورة فى مجال خدمة الإنسان، وتآلفه مع جميع الحضارات والمدنيات ذات النسيج الأخلاقى، واختراقه

---

(١) الحق المر: ١/ ١٣٠ .

(٢) الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده : ص ٩٦ للدكتور محمد عمارة.

مجالات النفس البشرية وسبر أغوارها، والسباحة فى بحار أحاسيسها ونزعاتها، وهى تعيش ضغوط المادة، ومغرياتها السريعة الإيقاع! . .

ومن هنا رأى فيه الإنسان الغربى ـ الذى طالما تبجح بظلمه للمرأة ـ طوق نجاة فى الكثير من أحكامه وخاصة تلك التى تمس الحياة الزوجية كمبدأ تعدد الزوجات ، وحرية الطلاق ؛ ليصبح متنفساً للخروج من أزمته الخانقة سواء على الصعيد الفردى أو الجماعى ، وموقف الكنيسة من جمهورها المطالب بحقوقه المشروعة. وللشيخ الأستاذ موقفه:

«مما يريب أوروبا من الإسلام أمر المرأة : فقد زعم الزاعمون أن الإسلام يهينها وينتقص إنسانيتها، والحق أن تعاليم الإسلام المستفادة من كتابه وسنة رسوله وتطبيق السلف الأول لا يمكن أن ترفضها الغربيات الواعيات.

حتى تعدد الزوجات فإنى رأيت فى حديث بعض النسوة الألمانيات أن التعدد أفضل وأشرف من المخادنة، وكان الألمان فى أعقاب الحرب العالمية الثانية يصدرون تشريعات تبيح التعدد لمعالجة الزيادة الهائلة فى عدد النساء! غير أن الكنيسة تدخلت معترضة فوقف التشريع!»(١).

وجاء فى صحيفة «المسلمون» فى عددها (٨٨) سنة ١٩٨٦م، أن

---

(١) هموم داعية: ص ٦٩.

تقييد الطلاق وحرمان الفرد من ممارسة حقه المشروع فى الحياة سبَّب إرباكاً وفوضى فى بعض الدول الغربية، حيث تسبب قانون منع الطلاق فى أيرلندا فى كوارث اجتماعية هائلة ، وتصاعدت الخلافات بين الكنيسة الكاثوليكية المتبنية لهذا القانون وبين الحكومة الأيرلندية التى تحاول تغييره. وطالبت جمعيات نسائية أيرلندية بتطبيق نظام الطلاق المتبع فى الدين الإسلامى.

نعم للزنا.. لا.. للإسلام؟!..

وعذراً للقارئ أمام هذا العنوان المثير.. إذ ما الحيلة وهو يمضى فى عناقه لمبدأ الغرب!! وضمن إطار هذا الشعار الذى رفعوه ومارسوه عملاً لا قولاً، يقول الأستاذ الجليل:

«وأذكر أنه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية فكر الألمان فى إباحة تعدد الزوجات ؛ لأنهم فقدوا نحو ثمانية ملايين من القتلى والأسرى، وزاد عدد النساء زيادة كبيرة، ثم رئى أن الزنا أفضل من اتباع الإسلام فى حل هذه المشكلة..»(١).

وضمن هذا الهجوم المفزع على الوازع الدينى والخلقى يتابع أستاذنا الغزالى قوله:

«إن الكنائس المختلفة تهاجم بضراوة نظرة الإسلام إلى الغريزة الجنسية، ولا تنفك عن مهاجمته واتهامه، وقد لاحظت أن آباء الكنيسة فى إنجلترا أيدوا مجلسى اللوردات والعموم فى إباحة اللواط، ورفضوا بإباء وشمم إباحة التعدد بشروطه الإسلامية.

---

(١) الحق المر: ١/ ١٤٠.

ترى هل ندموا على ذلك بعدما انتشر وباء «الإيدز» فى العالم كله نتيجة النظرة الغربية إلى العلاقات الجنسية؟.

يستطيع أى صعلوك فى مدن الغرب وقراه أن يشبع نهمته الجنسية من عشرات النساء ، والدول الآن فى ظل حضارة الغرب تيسّر البغاء، وتضمن بالكشف الطبى المنظم سلامة المومس لأن يطرقها من شاء، فهل هذا هو البديل الدينى المحترم الذى يرتضيه آباء الكنيسة، ويرونه أزكى وأشرف من إباحة التعدد، بشروطه الإسلامية؟.

لقد قرأت كلاماً لبعض الكهان والرهبان يصف تعدد الزوجات بأنه زنى صريح أو مُقَنَّع، ولم أقرأ لواحد من هؤلاء غمزه للفوضى الجنسية التى نقلت الحرام من عبث يتم فى جنح الليل إلى تهتك يتم فى وضح النهار، إن هذا الفحش أرضى لنفسه المريضة من البيوت التى يبنيها الإسلام على النسب الصريح والطهر الكريم والعلائق المكينة.

هؤلاء الكهان والرهبان هم المسئولون عن شيوع الإيدز والزهرى والسيلان.. وحقدهم على محمد ودينه مرض أفتك من هذه الأمراض الخبيثة كلها»[1].

ولا غرو أن هذا الحقد جعل بعض الدول الأوروبية لا تكتفى بتقييد شعوبها فى مسألة التعدد، بل تخطته حتى فرضته على رعايا

---

(١) الحق المر: ١/١٣٧.

الدول الإسلامية المهاجرة بشكل قانون ينص على عدم الاعتراف بنظام التعدد ، وعندها لن يعيش المغترب المسلم فوق أرضها إلا بزوجة واحدة لتحرم الأخرى حقها!.. هذا ما يواجهه المسلمون فى فرنسا على وجه الخصوص.

وللمرأة.. حق رفضه!..

إن روعة وعظمة الدين الإسلامى عدم تضييقه على الرجل أو المرأة فى ميادين التشريع.. فهناك رُخَص وشروط لأنه دين الرحمة!..

ويبقى شيخنا الغزالى فى منهجه مع المرأة كاشفاً لها عن منابع الرفق والعطف الذى أفاءه الله عز وجل عليها؛ فالغيورة من النساء، تلك التى لا تطيق وجود زوجة ثانية تشاركها الرجل، فإن لها حق رفضه:

«على أن الزواج عندنا لا يتم بالإكراه، وتستطيع أى كارهة للتعدد أن ترفضه!

ذلك ، ومن خشيت من زوجها التعدد تستطيع فى صلب العقد أن تشترط ألاّ تكون لها ضرة، وعلى الزوج ـ كما قال أحمد ـ أن يلتزم ويوفى بالشرط؛ وإلاّ طلقت! »[1].

ومع.. ضرب الزوجات!

وبحس الداعية الإسلامى العالى آثر الشيخ الغزالى منح الأسرة

(١) نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم: ١/٤٨.

حيزاً كبيراً من اهتماماته واجتهاده ؛ لأنها الشريحة المؤثرة والنسيج الأهم فى بناء المجتمع الإسلامى.

وعلق كثيراً على أهمية المساواة بين الزوجين، وتجنب مصادرة حقوق الطرف الضعيف «المرأة» بالضرب تحت مبررات التأديب!!.

ورأى أن القفز على الشريعة باللجوء إلى الضرب لن يكون بديلا أو حلاً للمشكلة ، بل إن ثمرته ستكون مرة ، وتأثيرها وخيم العواقب.

وأظن أنه ليس من الرجولة أو الخلق والدين الدخول فى معركة يعلم مسبقاً أنها غير متكافئة.

بقى أن نتساءل فى إطار النظرة الاجتماعية والنفسية: ما حال الزوج حين يُضرب من قبل رجل آخر على مرأى من زوجه أو جاره أو أقاربه؟!.

إذن فليتخيل الموقف إذا تم مع امرأة هى الأضعف ، سيما إنْ حصل على مشهد من صغارها!؟. إن المشاعر الإنسانية متساوية إجمالاً عند الرجل والمرأة ، وفى ميزان الحق.

وفى نصرة المظلوم.. يتصدى شيخنا الغزالى - للزوج الذى يحاول الإضرار بمشاعر الزوجة أو بدنها - من خلال القرآن والسنة التى تلزمه الرفق «بالقوارير».

وفى الغياب المذهل بحقيقة منهج الإسلام فى معاملة المرأة ينفى شيخنا الغزالى كل ما يتعلق بإذلالها أو الحط من شأنها:

«لقد رأيت فى قضية المرأة أحاديث موضوعة، وأحاديث واهية صححها الغرض المدخول، وأحاديث صحيحة حُرِّفت عن موضعها..»(١).

لا يُسأل الرجل فيم ضرب:

الإسلام لا يعرف لغة البطش والعضلات المفتولة حلاً للخلافات الزوجية.. بل يعرف لغة الحوار والتناصح والتفاهم القائم على الود والتراحم، إن شاء الرجل تحقيق الهيمنة على زوجته وانقيادها له انقياداً لا يذيب شخصيتها، بل انقياداً مبنياً على الحب والتلقائية لا الخوف من البطش.

وفى أصحاب العضلات المفتولة والقلوب المريضة.. والعقول المضطربة التى تجد من يبارك «مروءتها وشهامتها» يقول الغزالى:

«يملكنى الغضب والأسى عندما أجد رجال الحديث النبوى ضعفاء الوعى بالقرآن الكريم، يقرأون على الناس الحديث غير شاعرين بقربه أو بعده من هذه الآيات القرآنية.

فى الجزء الثالث من تيسير الوصول إلى جامع الأصول جاء عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**لا يُسأل الرجل فيم ضرب امرأته**»؟ أخرجه أبو داود.

قال الشيخ محمد حامد الفقى فى تعليقه على هذا الحديث:

(١) مائة سؤال فى الإسلام: ٢/٢٥٧.

وأخرجه النسائى! أى أنه قوَّى سند الحديث، وترك المتن وكأنه صحيح لا غبار عليه!.

وهذا الظاهر باطل ، فالمتن المذكور مخالف لنصوص الكتاب، ومخالف لأحاديث أخرى كثيرة! وعدوان الرجل على المرأة كعدوان المرأة على الرجل مرفوض عقلاً ونقلاً وعدلاً ، ولا أدرى كيف قُبل هذا الكلام ونُسب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم.

إن من قواعد الجزاء الأخروى قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراًّ يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] فهل الزوجة وحدها هى التى تخرج عن هذه القاعدة فلا يُسأل الرجل فيم ضربها؟». له أن يضربها لأمر فى نفسه، أو لرغبة عارضة فى الاعتداء؟ فأين قوله تعالى:

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقوله: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة: ٢٣١] وأين قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

«استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان عندكم ليس ما تملكون منهن شيئاً غير ذلك..»[1].

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة : ص ١٧٤ . والحديث أخرجه البخارى ٤/ ١٦١ ، ٧/ ٣٤ ومسلم فى الرضاع برقم ٦٠.

هواة الضرب..

يرى الداعية الجليل أن الاعتلال الفكرى الذى يغشى عقول بعض المشتغلين فى الوظائف الدينية يحول بين نشر الدعوة والثقافة الإسلامية ، خاصة والعالم المتمدن اليوم يرفع شعارات الإنسانية من قضايا حقوق الإنسان.. إلخ. وإن طغى الزيف - فى معظمها - ليحتوى هذه الدعاوى.

فالظلم الأشد لديننا حين ترتفع أصوات إسلامية تَصِمُ المرأة بالتحقير وإذلال مشاعرها والحث على ضربها..هذا إلى جانب ترهات خيانة حواء لآدم.

والشيخ الغزالى بغيرته الدينية واجتهاده الفقهى يأبى اللغو فى الدين والازورار عن مكنونه؛ لذا لا يدع موضوعاً يتبين فيه خطأ الرأى وخطله إلا ويميط اللثام عنه فى أكثر من جانب ، ويدافع بأكثر من سلاح حتى يبرز الوجه الحقيقى والجميل للإسلام.

يقول الداعية الجليل:

«فى أيام الهزائم الإسلامية التى نعانيها والتى ألصقت بالإسلام ما شاء أعداؤه من نقائص، سمعت خطيباً يروى هذا الحديث: «**لا يُسأل الرجل: فيم ضرب امرأته؟**».

قلت: إن ديننا متهم بأنه ضد حقوق الإنسان، وضد كرامة المرأة خاصة، فما حملك على إيراد حديث يفيد بأن الرجل يضرب

امرأته كيف يشاء ، لا يُسأل عما يفعل! وأنت تعلم أن هذا المعنى مرفوض فى الكتاب والسنة جميعاً.

قال : إننى رويت حديثاً صحيحاً.

قلت له : ألا تحفظ حديث مسلم فى صحيحه **«لتؤدين الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»** أفتكون الزوجة المضروبة أهون على الله من نعجة منطوحة ظلماً؟.

قال : النساء منذ حواء إلى اليوم يستحققن الحذر والتأديب ، وقد جاء فى الحديث **«لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر»**! فقلت له : ما خانت حواء آدم ولا أغرته بالأكل من الشجرة. هذا من أكاذيب التوراة !. والقرآن صريح وحاكم فى أن آدم هو الذى عصى ربه! ولكنكم دون مستوى القرآن الكريم، وتنقلون من المرويات ما يقف عقبة أمام سير الدعوة الإسلامية.

لماذا لا يُسأل الرجل فيم يضرب امرأته؟ أنربى بناتنا ليذهبن إلى فحل يلطمهن أو يؤذيهن دون مساءلة فى الدنيا والآخرة ؟! بأى منطق تتكلمون؟ «إن الله لا يظلم مثقال ذرة»..

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ .[النساء: ١٢٣].

ذاك فى الآخرة، ومن حق المرأة أن تشكو ما نزل بها إلى أهلها، أو الحكم الذى يمثلها ، أو القاضى الذى يجب أن يسائل زوجها!.

ولها بعدئذ أن تطلب الخلع أو تطلب التطليق للضرر..»[1].

هذا الدفاع عن المرأة المستند إلى تعاليم الإسلام، يلفت الشيخ الغزالى مدارك الزوج إليه فى ضرورة التمسك بأهداب الفضيلة والخلق القائم على التواد والتفاهم والتواصل إزاء الزوجة. وبمثل هذه المعانى الموضوعية يقطع الأستاذ الداعية الطريق أمام استضعاف الزوجة!. إن الجرأة على حكم الله سبحانه وسنن نبيه الكريم أمر خطير ورهيب.

مسوِّغات الضرب:

من فضائل الإسلام السابغة على المرأة: يحصر الشيخ الغزالى موجبات ضربها كما أوجبها الشارع الحكيم ضمن أضيق الحدود.. وأدق القضايا حساسية!.

ذلك فى حالة النشوز «أى: أن المرأة تستكبر على الزوج وتستنكف من طاعته. ويدفعها هذا إلى كراهية الاتصال به فى أمس وظائف الزوجية، فيبيت وهو عليها ساخط، وقد يدفعه ذلك إلى ضربها!. وهناك أمر آخر أفحش، أن تأذن فى دخول بيته لغريب يكرهه مع ما فى ذلك من شبهات تزلزل العلاقة الزوجية وتجعلها مضغة فى الأفواه..

ولم أجد فى أدلة الشرع ما يسيغ الضرب إلا هذا وذاك »[2].

---

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث: ص ٢٠٢، ٢٠٣.

(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٧٥.

حدوده..

ركز شيخنا الجليل الغزالى لافتاً بهذا بصائر الرجال لمثل هذه القضايا البالغة الحساسية فى عالم الحياة الزوجية، وإلى أن ضرب المرأة فى هذه الأحوال إنما يراد به عقوبة نفسية لا جسدية، علها تثوب إلى رشدها.. نلمس ذلك فى شرحه :

«فقد اتفقت كلمة المفسرين على أن التأديب يكون بالسواك مثلاً! فلا يكون ضرباً مبرحاً، ولا يكون على الوجه؛ ففى الحديث:

«.. ولا تضرب الوجه، ولا تقبّح» أى: لا تقل لها قبَّحك الله»[1]!

وقد منع الله الرجل من التشهير بالمرأة ليجعل الضرب فى (مخدع الزوجية) بعيداً عن أعين الأبناء، أو أى إنسان؛ لأن مواجعه على النفس أشق من وجيعة الجسد، وهو المقصود من وقوعه.

وبمثل هذا الشرح والأسلوب الرفيق فى تأديب الزوجة، يعلن :

«ومن ثم فالحديث الذى رواه أبو داود والنسائى فى ضرب النساء لا أصل له، مهما تمحَّلوا فى تأويله»[2].

والمرأة أيضاً..!

لا يورِّث الشر والأذى سوى شر أسوأ منه!..

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٧٥. والحديث أخرجه الإمام أحمد ٤/٤٤٧، ٥/٥، والطبرانى فى الكبير ١٩/٤٢٨.

(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الوافدة والراكدة: ص ١٧٥.

أحياناً يتحول الحيوان الأليف إلى وحش كاسر يهجم على صياده أو من يريد به شراً، فيغدو المطارد عندئذ طريدة.

ففى الحيوانات الوديعة هناك من ينتقم كالجمل مثلاً.. فإذا أمكنته الفرصة برك على من آذاه فلا يدعه إلا جثة هامدة!.

فكيف بالإنسان الذى كرمه الله سبحانه وتعالى؟!.

من هنا كان الإسلام حريصاً على المعاملة الطيبة بين الزوجين، فإلى جانب ارتفاع معدلات الطلاق وهدم البيوت وتشريد الأبناء، تتحول الزوجة ـ أحياناً ـ إلى قاتلة إن اشتط الرجل فى إيذائها.

وأحياناً تتحول الزوجة إلى «فتوة» تضرب زوجها!..

ففى دراسة قام بها عدد من الباحثين بالمركز القومى للبحوث (بالقاهرة) من واقع الشكاوى الزوجية الموجودة فى عدد من أقسام الشرطة تبين أن هناك ٢٨ فى المائة من الأزواج يتعرضون للضرب من جانب الزوجة!.

كما جاء فى إحدى الصحف أن البوليس الفرنسى يتدخل ست مرات بين عشر حالات ضرب بين الزوجين[(١)] .

والشيخ الغزالى الذى ساح فى ميادين الدعوة.. وتعرف على أحوال الناس وأوضاعهم الاجتماعية عن كثب وبصيرة يقدم لنا صورة أخرى لبعض النساء:

---

(١) جريدة الأنباء، العدد: (٦٤٢٦) ١٩٩٤م.

«على أن من احترام الواقع ألا نظن النساء كلهن ملائكة، والرجال جميعاً شياطين، هذا ضرب من السخف، والانحياز فى الحكم إلى أحد الجانبين ليس من الإنصاف.. والأولى أن ندرس العلاقات العائلية بتجرد، وأن نحسب آثار الطباع والأزمات والأحداث الطارئة، وألا نترك لسبب تافه القضاء على الحياة الزوجية»(١).

ويتحدث الأستاذ الغزالى عن المرأة الفتوة من خلال حديث نبوى:

«وقرأت حديثاً طريفاً لمعاذ بن جبل فيه وصف لبعض النساء «الفتوات» التى تحل مشكلاتها أحياناً بيدها (!) وتريد أن تبسط إرادتها فى البيت غير مكترثة بشىء.

وقد استمعت إلى نصح النبى الكريم ﷺ لهذه المرأة وأنا أغالب الابتسام!.

وهاك الحديث: **«لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تأذن لأحد فى بيت زوجها وهو كاره؛ ولا تخرج وهو كاره؛ ولا تطيع فيه أحداً، ولا تعتزل فراشه، ولا تضربه!!»**(٢).

قلت فى نفسى: كيف تضربه؟ هل استنوق الجمل إلى هذا الحد؟ أم أن المرأة من هواة الملاكمة، والمصارعة اليابانية؟

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١٧٥.

(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١١٤. والحديث أخرجه الحاكم فى المستدرك ٢/ ١٩١ وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب ٣/ ٥٧.

وعدت إلى الحديث الشريف أكمل قراءته بعد نهى الزوجة عن هذا التطاول والجحود قال ﷺ: «**فإن كان هو** - يعنى الزوج - **أظلم فلتأته حتى ترضيه! فإن قبل فبها ونعمت، وقبل الله عذرها، وأفلج حجتها** - أظهرها - **ولا إثم عليها، وإن هو لم يرض فقد أبلغت عند الله عذرها**».

ويستحيل ألا تمر بالبيوت أزمات، بيد أن الخلق العالى كفيل بتفريج الضوائق وحل المشكلات، وما أصدق قول الشاعر:

لَعَمْرُكَ ما ضَاقتْ بِلادٌ بأهْلِها ولكنَّ أخلاقَ الرجالِ تَضِيقُ![1]

وحول هذه القضايا الأساسية فى حياة المرأة يخلص الداعية الأستاذ بفكره الراجح :

«الحق أن قضايا المرأة تكتنفها أزمات عقلية وخلقية واجتماعية واقتصادية ، كما أن الأمر يحتاج إلى مراجعة ذكية لنصوص وردت، وفتاوى تُوورثت وعادات سيئة تترك طابعها على أعمال الناس.

لابد من دراسة متأنية لما نشكو منه ، ودراسة تفرق بين الوحى وما اندسّ فيه ، وما يجب محوه أو إثباته فى أحوال الأمة»[2].

❁❁❁

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ١١٤.

(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ١٧٦، ١٧٧.

الفصل الثامن :

الاختلاط
بين الحشمة والتبذل

«ونحن نأبى - كل الإباء - الخلخلة الاجتماعية التى ينقلها إلينا عبيد الغرب حين يزجون بالمرأة فى كل مكان، غير متقيدين بآداب الشريعة وحدودها من نواحى الاختلاط والزى، وإتاحة الصلات المريبة والمسالك المعيبة».

الشيخ محمد الغزالى

هل الاختلاط محرَّم؟..

المرأة اليوم باتت تختلط بالرجل فى المصنع وفى المدارس والجامعات.. وفى المستشفيات ودور الصحافة والشارع.. إلخ.

والاختلاط فى حد ذاته ليس محرماً بين مجموعة من الرجال ومجموعة من النساء.. وإنما السؤال: كيف، وأين يسمح به.. وما هى حدوده وآدابه؟!.

ولأن الاختلاط بات فى عصرنا يأخذ مدى واسعًا وشكلاً حساساً بالغ الخطورة فى حياة المرأة المسلمة على وجه الخصوص، فقد تناوله عالمنا الجليل من الوجهة التى رسمتها آثارنا وثقافتنا الإسلامية المثلى.

يقول الغزالى ـ رحمه الله ـ :

«الفتوى الشائعة بين بعض المسلمين والمتناقلة بين خصوم الإسلام، أن الإسلام يقيم أسواراً عالية بين الجنسين حتى لا يرى أحدهما الآخر، فالرؤية المجردة محرمة.

وقد رجعت إلى القرآن الكريم والسنن المتواترة والصحيحة، فوجدت أن هذه الشائعة مكذوبة، وأن الرؤيا العادية لا شىء فيها، وإنما المرفوض هو الرؤية الجريئة الوضيعة التى تبحث عن الإثم، ومن ثم أمر الدين بغض البصر».

ولكن.. للاختلاط ضوابط!

مع أن الإسلام لم يحرم الاختلاط على عصر النبوة، وهو من أزكى وأطهر وأندى العصور الإسلامية، إلا أن هذا الاختلاط كان محكوماً بأسيجة العفة والفضيلة.

لقد وقف شيخنا الجليل الغزالى للحيلولة دون محاولة الغرب اختراق البنية الإسلامية بتقاليد وافدة تبتعد ـ كل البعد ـ عن جوهر تراثنا وقيمنا.

وفى هذه القضية يقول:

«ونحن نأبى ـ كل الإباء ـ الخلخلة الاجتماعية التى ينقلها إلينا عبيد الغرب حين يزجون بالمرأة فى كل مكان، غير متقيدين بآداب الشريعة وحدودها من نواحى الاختلاط والزى، وإتاحة الصلات المريبة والمسالك المعيبة»[1].

ومن هنا شدد شيخنا الغزالى على التمسك بأدب الاختلاط فى الإسلام ؛ ليروى من خلال هدى القدوة نبينا الكريم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول الغزالى:

«ولا ينبغى للمرأة إذا خرجت أن تتبجح فى الطريق أو تحدث مظاهرة حولها!!

عن أبى أسيد قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء فى الطريق:

«استأخرن فليس لكنّ أن تحققن الطريق. عليكن بحافات الطريق»[2]

فكانت المرأة تلتصق بالجدار ـ مخافة أن تزاحم أحداً ـ حتى إن ثوبها ليعلق بالجدار من لصوقها به!»[3].

وفى هذا السياق يرى الغزالى:

---

(١) معركة المصحف فى العالم الإسلامى: ص ٢٦٩.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) من هنا نعلم: ص ١٥٩.

«فالمسجد والشارع وأرجاء المجتمع يوجد فيها الجنسان تحكمهما هذه الآداب : عدم التبرج والإثارة، وغض البصر ، والتزام العفة، وانشغال كل مسلم ومسلمة بالأغراض المشروعة التى خرج من أجلها!»[1].

نظرة الغلاة إلى الاختلاط:

ويكره الأستاذ الغزالى التنطع فى الدين والالتفات عليه بآثار واهية حرصت على سجن المرأة فى عصور التخلف بعد أن حررها الإسلام:

«وقد تواتر ذلك فى حياة السلف الأول فرئيت المرأة فى المسجد، بل تبعت الجيوش المقاتلة يحيط بها سياج من آداب الإسلام المقررة.

وأعرف أن هناك آثاراً واهية نبذها أصحاب الدقة العلمية فى تمحيص المرويات، ولم يذكرها عالمٍ يروى الصحاح، ولا احترمها فقيه ينقل حقائق الإسلام، مثل ما رُوى عن فاطمة أن المرأة لا ترى رجلاً ولا يراها رجل، ومثل حديث منع الرسول بعض نسائه أن يرين عبد الله بن أم مكتوم ، وتلك كلها أخبار لا تساوى الحبر الذى كتبت به، وهى ظاهرة التناقض مع مقررات الكتاب والسنة المقطوع بثبوتها ودلالتها.

ولكن هذه المرويات ـ المنكرة من الناحية العلمية ـ هى التى صنعت الفكر الإسلامى فى العصور الأخيرة، وفرضت الأمية والتخلف لا على المرأة وحدها، بل على نظام الأسرة وكيان المجتمع وطبيعة التشريع، ووجد من خطباء المساجد من يقول:

---

(١) الحق المر: ١/١١٨.

ـ لا تخرج المرأة من بيتها إلا إلى الزوج أو إلى القبر»[1].

الاختلاط بين الغلاة.. والعلمانيين :

الإسلام دين الوسطية يمقت الإفراط والتفريط. .

فما بين تشدد الغلاة، وانفلات العلمانيين من قوانين الشريعة ، تركت النوافذ مشرعة تجوس منها رياح وافدة خلقت سلوكاً شاذاً فى حياة المرأة يأبى الاستقامة مع هدى الله ـ سبحانه ـ ويرى شيخنا الجليل أنْ :

«لو قام فى هذا العصر مجتمع إسلامى واضح المعالم فى بيان مكانة المرأة وميدان عملها ومجال نشاطها لاختفى من الدنيا فساد كثير.

إن أصحاب الطباع السليمة يكرهون الاختلاط المسعور فى حضارة الغرب والتكشف الفاضح هناك، واستخفاء جو الأسرة، وانطلاق الغرائز دون ضابط، وهم يتطلعون إلى بديل أفضل فلا يجدون ؛ لأن صياح الغلاة من المسلمين ألقى فى روعهم أن الإسلام سجّان المرأة، وعدوٌ اكتمالها الإنسانى، وأنه تحت ضغط المدنية الحديثة أذن لها بالتعليم وهو كاره ، وأذن لها بالذهاب إلى المسجد يوم الجمعة وهو ضائق»[2].

كذلك للانطلاق حدوده..

«إلا أنى ـ إذْ أُطْلِقُ المرأة من سجن الجهل والقصور الذى حبسها فيه الغافلون ـ لا أتصور أن يكون إطلاق سراحها لكى تجرفها عواصف الشهوات. .

(١) الحق المر: ص ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة: ص ٣٠.

أو لكى تكون مسرح الأنظار الجريئة والأيدى الفاسقة.

أو لكى تنحل عروة الأسرة وتتوطد أركان التسول الجنسى..

إن ذلك لا يخطر ببال مسلم.

إننا لا نريد أن ننقل المرأة من عهد الحريم إلى عهد الحرام!..»[1].

بل حتى وقر فى الأذهان - كما يصف الشيخ الغزالى فى معرض كلامه عن الاختلاط -:

«إذا ذُكر الاختلاط ارتسمت فى الذهن الصورة الدميمة للعلاقات الاجتماعية بين الرجال والنساء كما استقرت فى الغرب، والحق أن هذه العلاقات سيئة، وأن وضع المرأة هناك لا يرتضيه دين!»[2].

أجل.. لا نريد أن ننقل المرأة من عهد الحريم إلى عهد الحرام..

بهذه العبارة الموجزة فى كلماتها الثرية فى معانيها، يلخص الشيخ منهجه وموقفه من الواقع الذى يرفضه لها.. ودوماً - إن شاء الله - يكون قد رفض كل ما هو بعيد عن خصائص الإسلام.

والمرأة فى منهج الإمام الغزالى - كما توضحها خطوطه الفكرية - هى المرأة التى تحاول جهدها الاقتراب من أختها تلك التى عاصرت عهد النبوة الزاهى.. والخلافة الراشدة.

وإذ أختم بحثى هذا.. أرجو الله مخلصة أن أكون قد وفقت فى إيصال جزء ضئيل من اهتماماته الفكرية حول الإنسان المسلم،

---

(١) معركة المصحف فى العالم الإسلامى: ص ٢٦٥.

(٢) مائة سؤال فى الإسلام: ٢/١٨٨.

فمهما تناولنا جوانب من مؤلفاته الثرية نبقى قاصرين عن إيفائه حقه من خدمة الإسلام والمسلمين، فلا أقل من دعواتنا له ما استطعنا . .

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧].

سهيلة الحسيني

٢٠/١١/١٩٩٦م

❁ ❁ ❁

المصادر

ابن تيمية (أبو العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم):
(الفتاوى الكبرى) دار المعرفة للطباعة والنشر (١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦م بيروت).
قدم له وعرف به : محمد حسنين محمد مخلوف، المفتى الأسبق.

أحمد موسى سالم:
بناء الأسرة فى هدى القرآن ، الأهالى للنشر والتوزيع (١٩٩٦م دمشق).

د. محمد عمارة:
١ ـ الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده ، دار الهلال (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م القاهرة).
٢ ـ **الشيخ محمد الغزالى** : الموقع الفكرى والمعارك الفكرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٢م القاهرة).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
عن الكاتبة . . والكتاب	٧
الإهداء	١١
المقدمة	١٣
الفصل الأول ـ المرأة والمسجد	١٩
إمام ومسجد	٢١
رسالة المسجد	٢٣
ارتباط المرأة بالمسجد	٢٤
المسجد وأدب المرأة	٢٥
مسألة فقهية	٢٨
بوادر منعها	٣١
ليتنا نتعلم	٣٤
كيف نمنع ما أقره الرسول؟!	٣٥
لكل امرأة دار عبادة	٣٨
المسجد وعوائل المغتربين	٣٩
فزع الغرب لماذا؟	٤١
من المسئول	٤٢
الفصل الثانى ـ فى رحاب التربية والدعوة	٤٥
موقف التربية من المرأة	٤٧
القرآن والسنة أول منابع التربية	٤٨

الموضوع	الصفحة
المسجد ورسالة التربية	٤٨
الأسرة مصدر تربية	٥٠
دور المرأة	٥٢
والتربية تضامنية	٥٣
دور الأب	٥٤
وسائل عصرية	٥٥
فى حقل الدعوة	٥٧
المرأة والدعوة	٥٨
صور ناصعة للمرأة من مجد الدعوة	٦٠
هناك كيف تدعو المرأة	٦١
لدينا داعيات	٦٣
وداعيات من غير ديننا	٦٥
من أساليب اغتيال الدعوة	٦٧
الحصاد	٦٨
وصرخة جديرة بالاهتمام	٧٠
لا إفراط ولا تفريط	٧٧
الفصل الثالث ـ حجاب المرأة	٧٩
فى حجاب المرأة	٨١
معركة النقاب	٨٣
دليل كشفه من خلال القرآن	٨٤
ومن خلال السنة	٨٥

الموضوع	الصفحة

فى فتاوى التحريم	٨٧
كلام مردود فى فتاوى وأحاديث	٨٨
لماذا الحجاب؟	٨٩
لا أخرج عن الإجماع	٩٠
وفتاوى معاصرة	٩١
فى تحريم كشف اليد	٩٢
دليل النفى	٩٣
الحجاب المقاوم داخل أرضه	٩٤
المدخنة أفضل من المحجبة	٩٧
وخارج أرضه	٩٨
بين المتطرفين الفرنسيين والغلاة المسلمين	٩٩
فى صرعة التنفير من الحجاب	١٠٠
الفصل الرابع ـ صوت المرأة بين الحق والباطل	١٠٣
فى صوت المرأة	١٠٥
من القرآن الكريم	١٠٦
وصوتها من خلال السنة الشريفة	١٠٨
مواريث لا تكاليف	١٠٩
الفصل الخامس ـ فى صروح العلم	١١١
المرأة المسلمة والعلم	١١٣
بدء الغارة لتجهيلها	١١٦
دور الاستعمار	١١٧

الموضوع	الصفحة
دور التغريب	١١٨
جمودنا الفكرى أعان الغرب	١١٩
دور المتشددين	١٢٠
وفتح لها الرسول الكريم أبواب العلم	١٢٣
نساء خالدات بعلومهن	١٢٣
وعندما نوصدها	١٢٦
حصاد حرمانها	١٢٧
الفصل السادس ـ هى والعمل	١٣١
المرأة والخروج والعمل	١٣٣
فى ظل تراجعها	١٣٣
بدء انطلاقها	١٣٥
بين وجهين دميمين	١٣٩
أعمال مرفوضة	١٤٣
عملها الأمثل	١٤٦
رأيه الثابت	١٤٧
فى عالم توليتها المناصب الكبرى	١٤٩
وظائف أخرى	١٥٣
الفصل السابع ـ الزواج والأسرة فى ظل الإسلام	١٥٧
لماذا الزواج؟	١٥٩
فى معوقات الزواج	١٦٠
عضل هنا ، وهناك زواج بأجنبيات	١٦٢

الموضوع	الصفحة
ومعوقات أخرى	١٦٣
فى عالم المساواة	١٦٤
فى دية المرأة	١٦٥
حقها فى الإرث	١٦٧
مساواتها فى اختيار الزوج	١٧١
والرغبة وحدها لا تكفى	١٧٤
ولها حق عقد زواجها	١٧٦
ولولى الأمر فسخه	١٧٨
معادلة فى الطلاق	١٧٨
من حقها الخلع	١٧٩
بيت الطاعة اجتهاد خاطئ	١٨١
الخلع ثابت فى السنة	١٨١
وليس من حقها الخلع	١٨٣
الطلاق بين شريعة السماء وقانون الأرض	١٨٤
الطلاق من حق الزوج	١٨٦
طلاق لا يعتد به	١٨٧
نختار ما يحمى الأسرة من الضياع	١٩٠
الطلاق السنى أدعى	١٩٢
التمتيع .. الحق المنسى	١٩٣
تعدد الزوجات	١٩٥
هل أباحته الأديان؟	١٩٨

الموضوع	الصفحة
لماذا يشغب علينا وحدنا ؟!	١٩٩
التعدد بين بابا الخلف وبابا السلف	٢٠٠
بين الكنيسة وجمهورها	٢٠١
نعم للزنا.. لا للإسلام	٢٠٣
وللمرأة حق رفضه	٢٠٥
ومع ضرب الزوجات	٢٠٥
لا يسأل الرجل فيم ضرب	٢٠٧
هواة الضرب	٢٠٩
مسوغات الضرب	٢١١
حدوده	٢١٢
والمرأة أيضاً	٢١٢
الفصل الثامن ـ الاختلاط بين الحشمة والتبذل	٢١٧
هل الاختلاط محرّم	٢١٩
ولكن للاختلاط ضوابط	٢١٩
نظرة الغلاة إلى الاختلاط	٢٢١
الاختلاط بين الغلاة والعلمانيين	٢٢٢
كذلك للاختلاط حدوده	٢٢٢
المصادر	٢٢٥
الفهرس	٢٢٦

هــذا الكتاب

إن تراث فضيلة الشيخ محمد الغزالى كنوز ثمينة ، ومعين لا ينضب من المعرفة الحقَّة ، ومن الدفاع الخالص عن دين الله ـ تبارك وتعالى ـ يجب أن ينال حظه من الاهتمام والرعاية .

وكاتبتنا السيدة سهيلة الحسينى قد طوَّفت بنا فى جنبات هذا التراث العظيم لتجلِّىَ مدى اهتمام الشيخ بقضايا المرأة على اختلاف جوانبها ، وتشعُّب نواحيها ، فقد كتب الشيخ ـ رحمه الله ـ عن المرأة والمسجد ، والمرأة والعمل ، والمرأة والعلم ، والمرأة والاختلاط ، وغير ذلك كثير . . ولقد تناولت الكاتبة كل ذلك بقلمها المدبج ، وحاستها المرهفة ، وأسلوبها الأنيق .

ودار الرشاد إذ تقدم هذا السِّفر الجليل ترجو أن ينفع الله به قراءها الكرام ، وأن يجعله نبراساً يهتدى به السائرون فى غياهب الحياة حتى يروا على ضوئه مكانة المرأة فى الإسلام من خلال هذا المنهج الرشيد .

والله من وراء القصد ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

الناشر

دار الرشاد